جيوفاني بوكاشيو

ألف ليلة وليلة الإيطالية

ديكاميرون

ترجمة

إسماعيل كامل

تقديم

د. نادية صلاح محمود

الكتاب: ألف ليلة وليلة الإيطالية .. ديكاميرون

الكاتب: جيوفاني بوكاشيو

ترجمة : إسـماعيل كامل

تقديم: د. نادية صلاح محمود

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: info@bookapa.com **http://www. bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بوكاشيو ، جيوفاني

ألف ليلة وليلة الإيطالية .. ديكاميرون / جيوفاني بوكاشيو, ترجمة : إسـماعيل كامل، تقديم: د. نادية صلاح محمود

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٧٦ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦١٤٠ / ٢٠٢٠

ألف ليلة وليلة الإيطالية
ديكاميرون

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كان بوكاشيو الأب يسكن مدينة سيرتالدو التابعة لفلورنسا الإيطالية، وكان يعمل في شركة تجارية مصرفية، هي شركة "دي باردي"، وفي عام ١٣١٢م سافر إلى فرنسا في مهمة عمل تخص الشركة، وفي باريس تعرف على فتاة فرنسية تدعى "جان" سرعان ما جمع بينهما غرام مشبوب، ونتج عن علاقتهما ولادة طفل غير شرعي هو "جيوفاني"، وذلك في اليوم السادس عشر من شهر يونيو عام ١٣١٣م ، وفي منتصف عام ١٣١٤م كانت مهمة الأب في فرنسا قد انتهت ، فعاد إلى إيطاليا مصطحبا طفله الذي كان قد أتم عامه الأول، فتم حرمان الطفل من أمه وحنانها قبل أن يجيد نطق حروف اسمها، وتزوج الأب فور عودته بفتاة إيطالية اسمها مرغريتا، ولدت له ولدا شرعياً أسماه "فرنشيسكو"، الذي حظى باهتمام الأسرة ، فوجد أخوه الأكبر جيوفاني نفسه محروما ليس من حنان الأم فقط، بل من رعاية الأب أيضا، ويرى نقاد بوكاشيو وكاتبو سيرته أن تلك النشأة تصلح لتفسير القسوة الشديدة التي عرف بها جيوفاني، وكذلك تهكمه المرير وعبثه بالفضائل في قصصه، المهم أن جيوفاني في مطلع شبابه أراد أن يواجه قسوة حياته بأن يكون رجل دين، وأراد له أبوه أن يجمع بين رغبة الصبي ورغبته هو التي أرادت اتجاها آخر، فأعد له برنامجا تعليميا للمرحلة الإبتدائية على يد جيوفاني دي سترادا والذي كان معلماً متخصصاً في قواعد اللغة في فلورنسا. كذلك أعد له برنامجا كنسيا، كما أعد له برنامجا آخر ليكون تاجراً ناجحا، واستمر لفترة

امتدت لست سنوات في هذا التدريب المهني سنوات ضاعت من عمره كما قال هو بعد ذلك.

فقد كانت قوة ما خفية تشده نحو قدره الحقيقي وهو الشعر، وقد كتب بوكاشيو عن تلك الفترة قائلا : " خلال السنة السابعة من عمره ، وقبل أن يكون قد شاهد ورأى كتاب شعر أو تعلم قواعد الإنشاء والنظم ، بدأ الفتى يكتب مقاطع شعرية وبطريقته الطفولية ، فاكتسب لقب الشاعر بين أقرانه".

لكن الحقيقة أن تلك السنوات لم تكن كلها ضائعة، فقد أتاحت له أن يتنقل بين ايطاليا وفرنسا، وقد أتاح له ذلك فرصة أن يرى أمه، ومن ناحية أخرى مكنته إقامته في باريس من امتلاك معرفة واسعة باللغة الفرنسية ، وهو ما ساعده على الإطلاع على آدابها وفنونها وهو ما تجلى فيما بعد في كتابته شعرا ونثرا .

الحب والموت

كانت حياة الصبي قد استقرت في مدينته تسكانيا، لكن حدث في عام ١٣٢٦م أن تم تعيين والده رئيساً للبنك في نابولي، فانتقل الأب إلى هناك مصطحبا أسرته، وعمل جيوفاني مساعدا لوالده، لكنه لم يحب أبدا العمل المصرفي، فحاول إقناع والده بأن يسمح له بدراسة القانون في الاستوديوم، وهو نوع من التعليم الأكاديمي في ذلك الوقت، وكان يتضمن دراسة القانون الكنسي، واستمرت تلك الدراسة مدة ست سنوات أيضا، وفي هذه السنوات درس بوكاشيو القانون الكنسي على يد

البروفسور سينو دا بيستويا، الذي كان صديقا لدانتي، وكان رجل قانون وشاعر كتب أكثر من مائتي قصيدة عاطفية تميزت بلغتها الشفافة وإيقاعها المتفرد . وكان من طلاب البروفسور بيستويا في جامعة بولونا في ذات الوقت الذي درس فيه بوكاشيو كل من بارتولس دا سكسوفراتو ، الذي أصبح فيما بعد قانونيا كبيرا، والفيلسوف وشاعر النهضة الإيطالية فرانشيسكو بترارك ، لكن بوكاشيو اعتبرها أيضا مثل سابقتها، ست سنوات ضائعة، فقال: " مرة أخرى لقد خسرت ست سنوات ، وإن هذه الدراسة سببت غثيان ذهني ، كما أنه لا تدريس أستاذي ، ولا سلطة وأوامر والدي، ولا جهود وتوبيخ أصدقائي نافعة في حملي على قبولها والسير في دراستها إلا أن الشئ الوحيد الواضح هو إن حبي للشعر لا تستطيع أن تقهره سلطة".

وفي عام ١٩٣٣م انتهي تنقل بوكاشيو الذي كان قد أتم عامه العشرين بين تسكانيا ونابولي التي أحبها فقرر أن يستقر فيها بشكل نهائي وكامل، كما قرر أن يتوقف عن دراسة القانون الكنسي ، ففي تلك الفترة كان قد ارتبط ببلاط ملك نابولي الملك روبرت حيث شارك مع أدباء كثيرين في أنشطة ثقافية وأدبية نظمها البلاط، أما الحدث الأهم في الفترة التي عاشها في نابولي، فحدث صبيحة يوم السبت – المقدس في كنيسة القديس لورنزو – وكان ذلك في عام ١٣٣٦م يومها التقي بفياميتا الابنة غير الشرعية للملك روبرت ملك نابولي الملقب ، فأحبها واستمر حبه لها لمدة اثنتي عشرة سنة، حتى ماتت عام ١٣٤٨ م في الوباء المعروف في التاريخ الأوربي بالموت الأسود، وقد ألهمه هذا الحب جميع

أعماله الأولى، ومن بينها القصة التي أسماها "فياميتا المحبوبة". وعموما كان حبه لفياميتا الأساس لجميع أعماله الأدبية، وقد خلدها في الفصل الأول الذي يفتتح به كتابه الشهر والأهم الدي كاميرون، وفيه يعترف أن هذا الحب هو الذي دفعه إلى كتابة هذا الأثر الخالد، وفي القصص التي كتبها سابقاً ، فيشيع في جوها حب فياميتا واللوعة على فراقها.

الديكاميرون والليالي

الديكاميرون كلمة يونانية الأصل تعني "عشرة أيام" واتخذها بوكاشيو عنوانا لكتاب ألفه عن النساء ومن أجلهن، فقد توجه في هذا الكتاب إلى النساء راغبا في تسليتهن ، حيث يراهن محرومات من وسائل اللهو والتسلية المتاحة للرجال، في تلك الفترة المظلمة من تاريخ أوروبا.

يضم كتاب الديكاميرون مائة قصة أو حكاية، تروى خلال عشرة أيام على ألسنة عشرة شباب: سبع نساء وثلاثة رجال، يحدث أن يلتقون في كنيسة سانتا ماريا الجديدة، ويتفقون على الهرب من وباء الطاعون، الذي اجتاح فلورنسا عام ١٣٤٨م ويذهبون للعيش في أحد القصور في الريف، وفي كل ليلة من الليالي العشر ويتبادل واحد من الأشخاص العشرة إدارة دفة الحديث، حيث يحكي عن مغامرة عاطفية ، تهدف إلى تسليتهم، ومن المعروف أن بوكاشيو كتب قصص هذا الكتاب ليستحضر روح حبيبته فياميتا ، التي قتلها الطاعون.

يبدأ بوكاتشو روايته بوصف المأساة بكل تفاصيلها في فصل يعتبر

مدخلا، إلى أن توجهت المجموعة إلى القصر، واقترحت إحدى النساء أن يتم انتخاب ملك من بينهم، ليتولى أمرهم طوال اليوم، وينتهي حكمه بنهايته، وهكذا أصبح من حق كل من ينتسب إلى المجموعة أن يتناوب على الحكم، ولإبعاد شبح الخوف وقتل الوقت، وحتى ينسوا الفظائع، التي خلفها الوباء في المدينة، أمرت ملكة اليوم الأول أن يشكلوا حلقة، وأن يروي كل واحد منهم قصة.

لم تكن الحكايات التي وردت على لسان الرواة من دون غاية أو هدف، بل كانت تحمل بين طياتها بعضا من الحكم، أو ذماً لبعض الممارسات اللاأخلاقية، التي كان يرتكبها الرهبان المتمسحون برداء الرهبنة، كما لم يسلم من كلماته اللاذعة الملوك والتجار الجشعون والكثير من الشخصيات، التي تعرضت لحوادث قاسية.

ويعتقد النقاد أن بوكاتشو استوحى الفكرة من ألف ليلة وليلة التي كانت حديثة عهد بالأدب الأوروبي ، وتعتبر الديكاميرون تصويراً حياً لمجتمع القرن الرابع عشر في إيطاليا، وفيها الكثير من الشخصيات التاريخية، مثل صلاح الدين ووليام الثاني ملك صقلية، كما استمد المؤلف من ألف ليلة وليلة بعض الشخصيات الأسطورية، فضلا على طريقة السرد نفسها في بعض الحكايات، كما أن بعض الكتاب والنقاد العرب يقولون إن الديكاميرون هي ألف ليلة وليلة الإيطالية.

إن كتاب الديكاميرون، إن تمَّ التعامل معه في سياقه التاريخي، فهو كتاب مواعظ عاطفية تنصح كل من المرأة والرجل كيف يمكن أن يكون

سلوكهم عند مواجهتهم مشاكلهم العاطفية من دون الدخول في منظومة القيم الأخلاقية والدينية.

وعلى الرغم من أنها كتبت في العصور الوسطى، إلا أنها لا تزال تحتفظ ببريقها الأدبي وأثرها الأخلاقي، فهي تعد من أكثر الكتب التي تمت ترجمتها إلى لغات أجنبية على مدار التاريخ، سواء في إيطاليا أم خارجها.

د. نادية صلاح محمود

اليوم الأول

كل النساء.. سواء

قالت «فياميتا»:

لما كان تطلع الرجال إلى سيدات أرفع منهم مقامًا، يُعد من إمارات الإدراك السليم، فكذلك نرى أن حرص النساء على أن لا يُؤخذن إذا ما فوجئن بالحب من رجال أرفع منهن قدرًا، دليل على رجاحة العقل. ومن أجل هذا، سأروي الآن كيف تستطيع المرأة بذكائها ولباقتها أن تصد أي هجوم من هذا النوع، إذا كان يستهدف شرفها:

كان المركيز «دي مونتفيرا» رجلًا موفور الشجاعة، عظيم البسالة. ولما كان من حملة لواء الكنيسة، فقد مضى مع جماعة من الأمراء المسيحيين في حملة صليبية ضد الأتراك.

وكانوا يتحدثون عن شجاعته وإقدامه ذات يوم في بلاط «فيليب» — الملك المُلقب بقصير النظر، والذي كان يجهز إذ ذاك في فرنسا حملة صليبية مُشابهة — وإذا بأحد رجال الحاشية يقول على مسمع من الملك إن ليس في العالم بأسره زوجان مثاليان يفوقان المركيز «دي مونتفيرا» وزوجته ، فبقدر ما كان الزوج ينافس سائر الفرسان في البسالة، كانت الزوجة تفوق سائر بنات جنسها في الكمال والجمال.

ووقعت هذه الكلمات من نفس الملك موقعًا جعله يهيم — منذ تلك

اللحظة – حبًا بهذه السيدة، وإن لم يكن قد رآها من قبل، حتى لقد عول على أن يرحل برًا إلى «جنوا»، عسى أن يجد ذريعة مُشرفة لزيارة السيدة، وقد خُيل إليه أنه لن يعجز عن إشباع نزواته، ما دام المركيز متغيبًا.

وبهذه النية، أرسل الفريق الأكبر من رجاله يسبقونه، ثم رحل هو بعد ذلك وسط حاشية صغيرة ، حتى إذا أصبح على مسيرة يوم واحد من مقر السيدة، أرسل يطلب إليها أن تنتظره على مائدة العشاء في اليوم التالي، فأجابت السيدة – وهي شديدة الاغتباط– بأنها ترى في هذه الزيارة شرفًا تتفرد به، وبأنها ترحب بالملك من صميم قلبها.. على أنها ظلت فترة طويلة تُسائل نفسها: لماذا يفد مثل هذا العاهل العظيم لزيارتها وزوجها متغيب عن وطنه؟.. وما لبثت أن رجحت – أخيرًا – أن يكون الصيت الذائع عن جمالها هو الذي اجتذبه إليها. ولكنها مع ذلك اعتزمت أن تُبدي للضيف من الإجلال ما يُناسب قدره، ويتفق مع نُبل نفسها. ومن أجل هذا دعت علية القوم من الجيران الذين تخلفوا عن الحرب كي تستشيرهم فيما يتطلبه استقبال ذلك العاهل. وتولت بنفسها إعداد العُدة لإقامة الوليمة، فاشترت كل ما كان في الريف من دجاج، وأمرت الطُهاة بأن لا يعدوا شيئًا آخر لعشاء صاحب الجلالة؛ بل عليهم أن يتفرغوا ليعدوا من هذه الدجاجات كل ما يستطيعون من ألوان الطهو.

وأقبل الملك في اليوم التالي، فاستقبلته السيدة بفرح عظيم، ووفته كل حقه من الإجلال والإكرام. واشتدت دهشته عندما وجدها تفوق كل ما قِيل في إطرائها, وما لبث أن أوى برهة إلى الجناح الذي أعدته له كي يستريح. فلما أُعِد العشاء، جلس جلالته والسيدة إلى مائدة واحدة،

وجلس أتباعهما إلى موائد أخرى، وفقًا لمراكزهم ومراتبهم.

وقدمت أصناف الطعام إلى الملك، واحدًا بعد آخر مصحوبة بأغلى أنواع الخمور. بيد أن مرأى السيدة كان أكثر امتاعًا لعينيه من هذه الوليمة التي أرضته كل الرضا. على أن الدهشة ما لبثت أن استولت عليه حين لاحظ أن جميع الأصناف لم تكن تتألف من غير الدجاج، وإن تباينت أساليب الإعداد والطهو. وكان يعرف أن ذلك الجزء من الريف غني بالغزلان والطيور البرية، كما أنه كان قد أعلن مقدمة قبل وصوله بوقت يكفي لتوفير هذين النوعين من اللحوم على المائدة.

وبتأثير تلك الدهشة، لم يشأ الملك أن يتحدث في أي موضوع قبل أن يلمح إلى ما يتصل بالدجاج، ومن ثم التفت إلى السيدة بأسارير تنم عن المرح، وقال: «سيدتي.. ألا تُربي في ريف هذا الإقليم غير إناث الدجاج وحدها؟!».. ورأت السيدة — التي فهمت ما يعنيه بسؤاله — أن الفرصة سانحة لتكاشفه بحقيقة شعورها، فأجابته في شجاعة[1]: «ليس الأمر كذلك يا مولاي.. وإنما قصارى القول أن النساء هنا كغيرهن في الأماكن الأخرى، وإن تباينت ثيابهن وألقابهن".

وما إن سَمِعَ الملك ذلك، حتى أدرك ما وراء الوليمة من مغزى، كما فهم ما في ثنايا ذلك الرد من معاني الفضيلة. وإذ أيقن أن الكلمات ستذهب هباء مع مثل هذه السيدة، وإنه لا يملك أن يستخدم القوة معها,

[1] قصدت السيدة الذكية بجوابها أن تقول إنه كما أن طعم الدجاج واحد لا يختلف، مهما تختلف طُرق طهوه، كذلك النساء.. كلهن سواء .. فلا داعي لتهالك الرجل على غير امرأته.

رأى من الأوفق لمقامه أن يكظم عاطفته الآثمة. وهكذا مضت الوليمة دون مزيد من الكلام, ولعله خشى إجابات السيدة على أسئلته. فلما رفعت المائدة، رأى أن يغطي قدومه غير المشرف برحيل متعجل؛ فشكر للسيدة ما لقي من حفاوة، واستأذن في الانصراف عائدًا إلى «جنوا».

الحسنة بمائة ضعفها

عندما أطرى الجميع عفة المركيزة – بطلة القصة الأولى– وأشادوا بالدرس الذي ألقته على ملك فرنسا، أطاعت «ايميليا» –التي كانت تجلس إلى جوار «فياميتا»– إشارة الملكة، وشرعت تقول في إلقاء طيب: «إن قصتي هي الأخرى درس، ولكنه موجه من رجل جليل – كان يعيش في جو دنيوي مادي– إلى رجل جشع من رجال الدين.. وقد جاء هذا الدرس في دعابة تدعو إلى الإعجاب»:

كان يعيش في مدينتنا، إلى عهد غير بعيد، راهب صغير الشأن، موكل بالتحقيق فيما يتعلق بالبدع والزيغ الديني.. وكان رغم ما يبذله من جهد ليبدو أمام الناس في مظهر الإنسان الورع القديس، والواعظ المتحمس للدين المسيحي – شأن كل الرهبان– قد أوتي له من الحساسية في تشمم أكياس النقود، عن ما له في تنسم ما يسيء إلى الدين.

وشاءت المصادفات أن تجزيه عن تحمسه هذا؛ إذ هدته إلى اكتشاف رجل طيب، رُزِقَ من المال أضعاف ما وهب من الإدراك.. وقد قدر لهذا الرجل في لحظة من لحظات التهور – الذي لا يرجع إلى ضعف الإيمان، وإنما قد يرجع إلى إفراط في المجون– أن يقول لزملائه في الشراب، وقد حمى وطيس الخمر في رأسه، أن لديه نبيذًا يليق بالسيد «المسيح» نفسه أن يشربه.. ونقل هذا القول إلى هذا الراهب المحقق، فلما عرف أن الرجل يملك أراض شاسعة، وأكياسًا متخمة، بادر لفوره إلى حشد كل قوى

القانون ضد الرجل، ساعيًا من وراء ذلك إلى إدخال الرهبة في نفس ضحيته، لا ليكشف زيفه، ولكن ليظفر منه بأكبر قدر من الجنيهات الذهبية، يثقل بها كيسه الخاص.

ومن ثم استدعى الرجل، وسأله عما إذا كان الاتهام الذي وُجِهَ إليه صحيحًا أو غير صحيح، فأنبأه الرجل بأن ما ذُكِرَ على لسانه كان صحيحًا، وروى له الظروف التي أحاطت بصدوره؛ فقال محققنا الراهب، التقي، التابع لمذهب القديس جون ذي اللحية الذهبية: «إذن.. ألا ترى أنك جعلت المسيح ذواقة للنبيذ، محبًا للنادر من نبت الكروم وكأنه سكير.. بل مدمن شراب، وجواب حانات مثلك؟.. وهل تظن الآن أن بوسعك أن تطوي المسألة بكلمات اعتذار قليلة وكأنها ليست ذات بال.. لا، إن الأمر ليس كما ظننت.. لقد استحققت النار، فإذا أوقعنا عليك هذا العقاب، فإنما نؤدي واجبنا». وبهذه الكلمات، وكثير على غرارها، راح يرهبه، وقد نطقت أسارير وجهه بالقسوة والصلابة، وكأن «ابيقور» يمثل أمامه مُنكِرًا أن النفس البشرية فانية لا خلود لها.

وباختصار، أوقع الراهب المحقق في قلب الرجل الطيب ذعرًا جعله يُبادر إلى الاستعانة بخدمات وسطاء معينين؛ لكي «يزيت» كفي الراهب الجشع بمنحه دسمة سخية.. ولشد ما كان تأثير هذا الدواء؛ إذ سرعان ما توارت «النار» التي كان المتهم مهددًا بها، وحل محلها «صليب» يلبسه مختالًا.. ولكي يبدو المنظر أكثر رواء، أمر المُحقق بأن يكون الصليب من اللون الأصفر، وأن يثبت على قاعدة سوداء.

يُضاف إلى هذا، أن الراهب – بعد أن دس النقود في جيبه– استبقى الرجل على مقربه منه أيامًا، وأمره بأن ينصت على سبيل التكفير إلى القداس في كنيسة "سانتا كروشي"، في كل صباح، على أن يتولى بعد ذلك خدمة الراهب على مائدة الفطور. وترك له الحرية في أن يتصرف بعد ذلك في بقية ساعات يومه وفق هواه. وأخذ الرجل ينفذ هذه الأوامر كلها بدقة تامة، إلى أن استرعت سمعه – ذات صباح– عبارة ترددت أثناء الترتيل، وهي: «الحسنة ترد بمائة ضعفها، وتحظى بحياة أبدية».

ونفذت هذه الكلمات إلى ذاكرة الرجل الطيب، فنقشت نفسها على صفحتها. وعندما مثل بين يدي الراهب –في موعد الفطور من ذلك الصباح– سأله هذا عما إذا كان قد أنصت إلى قداس الصباح، فأجاب الرجل لفوره: «أجل يا سيدي».. وعاد الراهب المحقق يسأله: «ألم تُصادف فيه شيئًا التبس عليك فهمه؟.. أو ليس لديك شك أو سؤال في صدده؟»، فأجاب الرجل «لا، بالتأكيد.. لا شك لدي فيما سمعت، وإنما لدي إيمان وثيق بصدق كل ما قيل!.. على أنني صادفت شيئًا واحدًا جعلني أرثي من كل قلبي لك ولكل الرهبان الآخرين، وأفكر – في إشفاق– في المأزق الذي ستجدون أنفسكم فيه في العالم الآخر».

وهنا سأله المحقق: «وما هي الفقرة التي حركت في قلبك الرثاء لنا؟».. فأجاب الرجل الساذج: «إنها يا سيدي الفقرة التي جاء فيها: الحسنة ترد بمائة ضعفها».. فقال الراهب: "لقد أصبت السمع ، ولكن.. ما السر في أن هذه الفقرة أثرت في نفسك؟".. فقال الرجل: "سأبين لك يا سيدي جلية الأمر.. فلقد اعتدت أن أرى – منذ ترددت على هذا

المكان لخدمتك– جمعًا من الفقراء يأتون كل يوم ليتلقوا نصيبًا من الصدقات، فمنهم من يتلقى دستًا هائلًا من فضلات الطعام والشراب المتخلفة عن مائدتك وموائد أخوتك في هذا الدير، ومنهم من يتلقى دستين.. فإذا كانت هذه الصدقات سترد إليكم مضاعفة مائة مرة في الآخرة، فلا بُد لكم من أن تغرقوا جميعًا في ركامها!".

وأثار هذا القول عاصفة من الضحك انبعثت ممن كانوا جلوسًا إلى مائدة المحقق، بينما شعر هذا بأن كلمات الرجل كانت طعنات نجلاء مصوبة إلى نهم الرهبان وجشعهم؛ فاشتد به الحنق. ولو لم يكن بين ضيوفه من كان يحصي عليه تصرفاته، لنكل بالرجل جزاء تندره وتفكهه هذا، ولكنه لم يجد –أخيرًا– سبيلًا أفضل من أن يطرد الرجل ويسرحه.

امرأة.. تهز ملكا

لم يكن قد بقي من الرواة – قبل أن يحين دور ملكة اليوم الأول في سرد قصتها– سوى "اليسا". فلما رأت هذه أن دورها قد حان، لم تنتظر إشارة الملكة، وإنما بادرت قائلة في أسلوب يفيض بُشرًا ورقة: "تصورن يا سيداتي، كم من رجال نذروا الزهد والعفة، فإذا بكلمة عابرة تخرجهم عن نذورهم هذه!.. كذلك من الرجال من ذهبت بهم التقوى والتسامح إلى حدود الضعف والاستخذاء، فإذا بكلمة –أيضًا– توقظهم من سباتهم المزرى!.. وقصتي، التي ستكون أقصر قصص اليوم، خليقة بأن توضح لكم هذه الحقيقة في جلاء. ولن يضيرني قصرها، فإن القصص الجيدة غالبًا ما تكون ممتعة، ومن ثم فهي تستأثر باهتمام السامع، بغض النظر عن راويها: "حدث في عهد أول ملوك قبرص – بعد أن غزا "جودفري دي بويون" الأراضي المقدسة– أن سعت سيدة من «غسقونيا» إلى الحج وزيارة كنيسة المهد المقدس..

وفي أثناء عودتها إلى وطنها، هبطت في قبرص، حيث تعرضت لعدوان وحشي على أيدي مجموعة من الأشرار، مما حطم قلبها، وأثقل نفسها بحزن طاغٍ لا عزاء له، فقررت أن ترفع شكاتها إلى الملك. ولكن، قيل لها أن لا جدوى ولا طائل من وراء هذه الشكوى، لأن الملك كان مستهترًا، خائر النفس إلى درجة أنه لم يكن يهمل الثأر للغير والانتقام لما يصيبهم من أذى فحسب، وإنما كان يحتمل أيضًا ما يصيبه شخصيًا من ضر، ويتقبل الإساءة

في رضوخ واستسلام عجيبين، مما شجع كل مزهو بوقاحته وجرأته على أن يسئ إلى ذلك الملك، أو يعتدي على مقامه.

وعندما سمعت السيدة هذا الحديث، اشتد بها الأسى، واستبد بها اليأس. غير أنها رأت أن تفضفض من حزنها بأن تمضي في إصرارها على أن ترفع الأمر إلى الملك، وأن تنبهه إلى ما في سياسته من ضعف يزري بمكانته وقدره.

وعلى هذا، سعت إلى مقابلته. ومثلت بين يديه ودموعها تنساب على خديها، فقالت له: "مولاي.. ما جئتك طمعًا في أن تصلح ما لحق بي، وأن تنتقم لما أصابني من أذى، وإنما جئت لأسألك –إن راق لك أن تجيبني– عما يحدو بك إلى أن تتحمل، في صبر، الذنوب التي ترتكب في حقك، كما علمت.. وذلك حتى أتعلم منك الصبر الذي يمكنني من أن أتحمل ما يصيبني.. فإن أساي لما نزل بي يجل عن الاحتمال، حتى إنني لا أحجم –علم الله– عن أن أنقله إليك، إذا كان هذا النقل مُمكنًا لما شهدته من استعدادك للصبر وقدرتك على الاحتمال".

ووقعت هذه الكلمات كرنين الجرس في نفس الملك المستخذي اللين، وأيقظته من سباته. وكان من جرائها أن بادر إلى ترضية السيدة، وتعويضها عما أصابها.

وكان هذا الحادث هو البداية؛ إذ حرص الملك بعد ذلك على أن يطبق قواعد العدالة في حزم وشدة على كل من تسول له نفسه أن يمتهن جلال تاجه، ومقام ملكه.

اليوم الثاني

شفاعة القديس "جوليان"

قال "فيلوستراتو":

سأروي لكم قصة عن أمور تتعلق بالدين، وتمتزج بالهموم والنوائب حينًا، وبالحب حينًا، عسى أن تفيد من يسعون ضاربين في مسالك الهوى غير الأكيدة:

قدم إلى مدينة «بولونيا» بإيطاليا في عهد مركيز «فيرارا» تاجر يُدعى "رينالدو داستي" لبعض شئونه الخاصة، حتى إذا فرغ من مهامه، قفل عائدًا إلى بلدته. وعند خروجه من المدينة على صهوة جواده، صادف أشخاصًا بدا عليهم أنهم من التجار، فانضم إليهم غير موجس ولا محاذر. على أنهم كانوا في حقيقتهم من قطاع الطرق، فلما عرفوا أنه تاجر، ظنوا أنه يحمل مالًا وفيرًا، فعولوا على أن يسلبوه ذلك المال في أول فرصة تسنح لهم. وحتى لا يساوره أي شك نحوهم، ظلوا ماضين معه في الرحلة، وهم يحدثونه بلهجة ذوي السمعة الطيبة والخلق القويم، مبدين أقصى اللطف والمجاملة، إلى درجة خُيل إليه معها أنه جد سعيد حين التقى بمثل هذه الثلة الطيبة بعد أن كان مسافرًا بمفرده، وليس في صحبته سوى خادم واحد.

وتناولوا بالحديث شتى الأمور ومختلف الموضوعات، ثم تحولوا أخيرًا يخوضون في ذكر الصلوات، فاستدار أحد الأشرار – وكانوا ثلاثة– ليسأل

رينالدو: "وأية صلاة تتلوها يا سيدي عادة، وأنت على سفر؟"

الحق أنني لست ملمًا بغير النذر اليسير من هذه الأمور.. بل إنني لا أحفظ سوى عدد ضئيل جدًا من الصلوات. ولكني أعيش على نمط رجعي قديم، ومن ثم اعتدت قبل أن أغادر بيتي للسفر أن أتلو صلاة ربانية، ودعاء للسيدة مريم، وأهبهما لوالد القديس جوليان وأمه. ثم أضرع إلى الله وإلى هذا القديس أن يمنحاني مأوى طيبًا ألوذ به في المساء. واسمح لي أن أؤكد لك يا سيدي، أنني كثيرًا ما تعرضت لأخطار هائلة في الطريق، ولكني نجوت منها جميعا.. كما أنني كنت –إذا ما جن الليل– أوفق إلى مأوى طيب. وهذه منه أوقن من أن القديس جوليان –الذي أمجد سيرته– قد استمدها لي من الله ، وأعتقد أنني لا يمكن أن آمن في سفري، أو أوافق إلى مأوى مريح، إذا قُدِرَ لي أن أنسى هذه الصلاة.

فقال الآخر: "لا شك في أنك تلوت تلك الصلاة في صباح اليوم؟".. فرد عليه "رينالدو" قائلًا: " هذا ما فعلته بكل تأكيد". فحدث الشرير نفسه، وقد استقر على طريقة للتصرف معه: "ستحتاج إلى صلوات كثيرة، لأن مسكنك –إذا لم أخطئ الحدس– قد لا يأتي على الوجه الذي ترجوه"..

ثم استرسل بصوت مرتفع: "إنني سافرت كثيرًا، ولكني لم أتل هذه الصلاة على الاطلاق – رغم ما سمعته من تحبيذ لها– لأنني كنت أوفق بدونها إلى السفر المريح. ولسوف ترى الليلة أينا يوفق إلى مأوى أفضل. ومع ذلك، فلا يفوتني أن أعترف بأنني أستعيض عن هذه الصلاة بصلوات

أخرى، مثل "الديروبستي", و"الانتمراتا", و"من الأعماق"، إذ كانت جدتي تردد لي ما لها من أثر فريد".

وهكذا مضوا في سفرهم، متناولين بالحديث أمور كثيرة. وأخذ الأشرار يرتقبون الوقت والمكان الملائمين لتنفيذ خطتهم الخبيثة. وفي ساعة متأخرة من الليل، بلغوا مكانًا غير مطروق عند بقعة ضحلة من النهر بالقرب من قلعة «جيليبيلمو». وإذ ذاك هجموا على الرجل فسلبوه نقوده، وجردوه من كل ثيابه –عدا القميص– ثم تركوه واقفًا وهم يقولون ساخرين: "اذهب فانظر ما إذا كان قديسك جوليان سيزودك الليلة بمأوى طيب كهذا الذي سنحظى به".. وعبروا النهر ماضين في طريقهم. أما خادم "رينالدو" فإنه – ككل وغد – لم يكد يرى سيده فريسة للأشقياء، حتى أسرع مبتعدًا على مطيته دون أن يبذل أدنى معاونة له، بل إنه لم يتوقف قط حتى بلغ قلعة «جيليبيلمو» في ساعة متأخرة, فلاذ بها دون أن يكلف نفسه مزيدًا من العناء.

وبقي "رينالدو" وحيدَا في قميصه، بلا حذاء ولا جورب. وكان الطقس غاية في البرودة، والثلج ينهمر بلا انقطاع، وقد أخذ الليل يكتهل، وهو لا يدري ماذا يصنع؟! وما لبث أن بدأ يرتعد ويرتجف، وراحت أسنانه تصطك من البرد. وتلفت حوله يبحث عن مأوى يقضي فيه ما تبقى من تلك الليلة، وقد برح به الجوع، ولكنه لم ير أثرًا لإنسان؛ إذ كانت الحرب الخيرة قد خربت الريف ودمرته تدميرًا. وحمله البرد القارس على أن يسرع الخطى نحو قلعة «جيليبيلمو»، ولم يكن يعلم أن خادمه لاذ بها أو بسواها، وإنما داخله رجاء في أن يجد في هذه القلعة ما يسعفه، إذا قدر له أن

يدخلها. على أن الظلمة اشتدت قبل أن يقطع الميل الأخير؛ فأبطأ في سيره. ولم يصل إلى القلعة إلا في ساعة متأخرة ليجد أبوابها مغلقة، والجسور مرفوعة. ولم يستطع أن يحصل على إذن بالدخول، فاشتد كربه، وتضاعف قنوطه، وأخذ يتلفت حوله ليرى ما إذا كان ثمة وقاء من الثلج المنهمر، وإذا به يكتشف – بطريق المصادفة– منزل يشرف على سور القلعة. فقرر أن يقف في حماه طول الليل، ثم يستأنف رحيله في الصباح. ووجد في الجدار بابًا محكم الإغلاق، كما شاهد حوله بعض القش فجمعه وجلس فوقه ليغرق في لجة التفكير بقلب محزون، وليصلي إلى القديس "جوليان" ويشكو إليه ما لاقاه، مما لا يتفق مع الثقة التي يضعها فيه على الدوام.

ولكن القديس الذي كان يرعاه سرعان ما زوده بمأوى أفضل مما كان يرجو.. فقد كانت تعيش في تلك القلعة أرملة على جانب كبير من الجمال، أحبها مركيز «فيرارا» حبه للحياة الغالية، فاستبقاها في ذلك المنزل المنعزل الذي لاذ "رينالدو" بجداره. وكان المركيز – في ذلك اليوم بالذات– قد وعد السيدة بأن يحضر ليمكث معها طوال الليل؛ فأعدت له حمامًا وعشاءً فاخرًا. وإذ أصبح كل شيء مهيأ، ولم يعد ينقص السيدة سوي قدوم المركيز، فوجئ هذا برسالة عاجلة تتطلب منه أن يقوم برحلة ما على الفور، فأرسل يقدم اعتذاره إلى السيدة، ورحل في الحال. وتكدر خاطر السيدة كثيرًا، ولم تدرِ كيف تقضي كل ذلك الوقت. وأخيرا، اعتزمت أن تنتقع هي بالحمام –الذي كانت قد أعدته للمركيز– ثم تتناول عشاءها وتأوى بعد ذلك إلى فراشها. ولكن شاءت المصادفة أن يكون الحمام على مقربة من الباب الذي احتمي "رينالدو" البائس به، فلما

دخلت سمعت الأخير يجأر بالشكوى، ويرتعد. فنادت على التو وصيفتها، وطلبت إليها أن تطل من فوق الجدار على عتبة الباب، ثم تستفسر عمن يكون ذلك الرجل وماذا يريد. فذهبت الخادمة واستطاعت على ضياء السماء أن تميز "رينالدو" وقد جلس على مقربة من الباب. وإذ سألته عمن يكون، أجابها بجهد وهي لا تكاد تفهم قوله لفرط ارتجافه. وشرح لها كيف قدم إلى ذلك المكان، وضرع إليها أن لا تدعه للبرد يهلكه.

ورثت الفتاه لحاله، فعادت تروي قصته كامله لسيدتها التي أشفقت عليه بدورها، وتذكرت أنها تحتفظ بمفتاح الباب لتستخدمه أحيانًا في إدخال المركيز، فقالت: "اذهبي وافتحي الباب برفق، فإن لدينا طعامًا كثيرًا لا نجد من يشاركنا فيه. وقد يجمل بنا أيضًا أن نمنحه مأوى".. فأخذت الفتاة تثني على إحسانها وكرمها، ثم بادرت تفتح الباب؛ فإذا "رينالدو" يوشك أن يتجمد ويهلك من البرد، فأهبت به: "هيا أيها الرجل الطيب، وادخل هذا الحمام الذي لا يزال دافئًا".

وأسرع إلى إطاعتها دون مزيد من الإلحاح. وألفي نفسه ينتعش بدفء الحمام، وكأنه يرتد من الموت إلى الحياة.. وأرسلت إليه السيدة بعض ثياب – مما ترك زوجها الراحل– فلاءمته الملاءمة، وكأنها صنعت من أجله.. ثم جعل ينتظر ما تصدره إليه من أوامر جديدة، وهو يحمد الله والقديس "جوليان" على أن أنقذاه من أبشع الليالي وساقاه آخر الأمر إلى حيث يأمل أن يلقى الترفيه الجميل.

وكانت السيدة قد استراحت قليلاً؛ فأمرت بإشعال نار كبيرة في

الردهة، حيث أقبلت تستفسر عن ذلك الرجل الطيب، وتسأل أي صنف من الرجال يكون، فأجابتها الوصيفة: "لقد ارتدي ملابسه يا سيدتي، فبدا فيها رجلاً مليحًا جدًا، ومهذبًا في تصرفاته".. فقالت لها: "اذهبي إذن، فاستدعيه واطلبي منه أن يقترب من المدفأة، ولا مانع من أن يتعشى معي، فإنني أشفق من أن يكون قد تناول العشاء هزيلا يدعو للأسى".

وعندما جاء رينالدو إلى الردهة، شاهد السيدة؛ فبدت له جليله القدر، ومن ثم قدم لها أعمق مظاهر الإجلال، وأعرب ما استطاع عن آيات الاعتراف بالجميل بما أغدقته عليه من فضل وإكرام؛ فدعته إلى الجلوس بجوار المدفأة، بعد أن وجدته على ما وصفته به الخادمة، ثم أخذت تسأله عن المآسي التي طوحت به إلى ذلك المكان، فقص عليها بكل أمانه ما وقع له، واستطاع أن يكتسب ثقتها بسهولة، لأنها كانت قد سمعت شيئًا عن وصول تابعه إلى القلعة. وما لبثت أن أخبرته بما تعرفه عن ذلك، ووعدته بأن تهيئ له مقابله خادمه في الصباح.

وعندما أعد العشاء، صدع " رينالدو" بما أشارت به السيدة، فغسل يديه ثم جلس معها إلى المائدة. ولما كان قوي البنيان، جميل المحيا، وفي عنفوان رجولته، فقد راحت السيدة ترمقه بنظرات مفتونة، وقد ضاعف من وجدها أن أخلف المركيز موعده ، ولذلك ما لبثت بعد العشاء أن استشارت خادمتها فيما إذا كان في وسع ذلك الضيف أن يشغل الليلة مكان المركيز –الذي كان بهذه المناسبة يخدعها بدوره – وهل يجدر أن تنعم بما طوح به الحظ في طريقها؟.. وكانت الوصيفة تدرك جيدًا ما يدور برأس سيدتها، فأشارت عليها بأن تنتهز الفرصة المواتية. وعلي ذلك عادت

السيدة إلى جوار المدفأة حيث كانت قد تركت ضيفها، وقالت له بلهجة مشجعة: "آه يا "رينالدو".. لماذا أراك غارقًا في التفكير؟.. أتفكر في جوادك وبعض ملابسك التي فقدها؟.. سر عنك، فأنت كما ترى في منزلك، بل أضيف إلى هذا أن رؤيتي لك في ثياب زوجي تصورك لي في شكله، وتجعلني أتلهف على ضمك وتقبيلك.. ولولا خوفي أن يكدر ذلك صفوك لأقدمت عليه".

ولم يكن "رينالدو" غبيًا – في هذه الأمور– فما أن سمع كلماتها، ولحظ نظراتها الزاخرة بالمعاني، حتى اقترب منها فاتحًا ذراعيه، وهو يقول: "آه يا سيدتي.. كلما فكرت في أنني مدين لك بحياتي، وكلما تذكرت أي مأزق أنقذتني منه، رأيت أن من الجحود المنكر أن لا أحاول ما استطعت أن أرضيك وأسعدك! تعالي يا سيدتي فقبليني وعانقيني ما طاب لك التقبيل والعناق، فإنه ليسعدني كل السعادة أن أبادلك فضلاً بفضل".

ولم يعد الأمر يحتاج إلى كلام، فألقت السيدة بذراعيها حول عنقه على الفور، ثم دخلا حجرة أخري، قضيا فيها الهزيع الباقي في الليل، في هناءة ما بعدها هناءة.

وفي الصباح، قدمت له السيدة بعض الثياب القديمة – بدلا من تلك التي لبسها في الليلة السالفة – تحاشيًا لأية ريبة، ثم ملأت له جيوبه بالنقود، وطلبت إليه أن يبقى ما حدث بينهما سرًا.. ثم أرشدته إلى حيث يجد خادمه، وتركته يخرج من نفس الباب الذي دخل منه.

وما إن طلع الصباح حتى بادر إلى القلعة يدخلها وكأنه قادم من

مكان بعيد.. وهناك، وجد ذلك التابع، فخلع معطفه البالي، وهم بركوب جواد الخادم، لولا أن حدث إذ ذاك، لحسن الحظ، أن اعتقل الأشرار الثلاثة –الذين نهبوه في اليوم السابق– في حادث آخر؛ فسيقوا إلى القلعة حيث أقروا بما فعلوه. وبهذا استعاد "رينالدو" جواده وملابسه ونقوده، ولم يفقد سوى رباط جوربه؛ لأن الأشرار لم يعرفوا مصيرًا له.. فحمد الله والقديس "جوليان"، ثم ركب جواده، ووصل سالمًا إلى منزله. وفي اليوم التالي بالذات، استعرض الأشقياء على ملأ من الناس، ثم علقوا من رقابهم، وتركوا يتأرجحون في الهواء.

الحب.. لا يعترف بالإجازات

قال "ديونيو":

كنت قد اخترت القصة التي سأرويها لكم، لولا أن خطرت لي هذه الأخيرة كعبرة لأولئك الرجال الذين يستمرئون صحبة النساء في تغربهم؛ فيتقلبون اليوم في أحضان هذه ليتركوها في اليوم التالي إلى تلك، وهم يظنون أن زوجاتهم يجلسن مكتوفات الأيدي، وكأن التجربة اليومية لا تؤكد لنا عكس ذلك ، لهذا سأثبت لكم مدى حماقة أمثال هؤلاء الرجال، لاسيما أولئك الذين يرون أنفسهم أقوى من الطبيعة التي صاغتهم؛ فيحاولون أن يستروا عيوبهم ببعض المظاهر المُغالى في اصطناعها، يسعون إلى أن يجعلوا سواهم من الناس يغدون على نسقهم –قلبًا وقالبًا– مهما يكن التباين بين ذلك وبين فطرتهم الطبيعية.

عاش في «بيزا» يومًا قاضٍ أوتي من النبوغ قدرًا يفوق ما أوتيه جسده من قوة، وكان يدعى "ريكاردو دي كينتسيكا". وإذ اقتنع بأن الزواج لا يتعارض مع مواصلة التفقه، رأي – وهو الواسع الثراء – أن يتخذ لنفسه زوجة ناضرة الصبا، رائعة الجمال ، ولو أنه عرف كيف ينصح نفسه بمثل ما ينصح به الآخرين، لتحاشى الصبا والجمال معًا.

وتحقيقًا لرغبته، آثره السيد "لوتوجالاندي" بكريمته التي كانت تدعى "بارتولوميا"..

وجاء القاضي بعروسه إلى منزله في أبهة فاخرة، وبعد أن احتفلا

بزفافهما في مظهر رائع، مضى القاضي يستكمل مع عروسة أهداف الزواج، ولكن.. على ضعفٍ لا يَروِي غلة عروس. وفي الصباح التالي أخذ يجدد نشاطه بالخمر والعقاقير المقوية؛ وإذ تبين حقيقة حاله، راح يلقن عروسه تقويمًا من التقاويم التي يعلقونها للأطفال في «رافينا»، فيوضح كيف يندر أن لا يكرس يوم من أيام السنة لهذا القديس أو ذاك، وكيف أن لبعض الأيام أكثر من قديس واحد. ومضى يثبت لها بأدلة عديدة كيف ينبغي على كل زوجين أن يظلا متباعدين في هذه الأيام الأخيرة توقيرًا للقديسين.. ليس هذا فحسب، بل إن من الواجب الصوم في تلك الأيام بالذات، كما يجب السهر طوال الليل في موالد الرسل والقديسين، وفي أيام الجمع, والسبت, والأحد, وأيام الصوم الكبير.. هذا عدا ملاحظة دورة القمر وغير ذلك مما لا عد له ولا حصر.. ولعله كان يعتقد أن راحته تستوجب أن تكون أجازاته مع زوجته كثيرة لقلة قضاياه في المحكمة.. ولكم استاءت الزوجة عندما عاش على هذا النحو؛ فأصبح لا يكاد يتحدث إليها أكثر من مرة في الشهر، وأحاطها بسياج من الرقابة الشديدة خشية أن يعلمها رجل آخر ما يتعلق بأيام العمل كما علمها هو ما يتعلق بأيام العطلات والأعياد.

وحدث أن اشتدت حرارة الطقس، فرغب القاضي في أن يروح عن نفسه بالانتقال إلى إحدى ضياعه في الريف على مقربة من «الجبل الأسود»، وأن يصطحب زوجته لبضعه أيام. ولكي يحبب إليها الريف، خرجا سويًا لصيد السمك في أحد الأيام، واستقل هو والصيادون قاربًا، بينما استقلت هي قاربًا آخر مع نفر من السيدات اللاتي ذهبن لمشاهدة

تلك الرياضة. وساقهم الترويح عن النفس إلى أميال داخل البحر دون أن يفطنوا إلى ذلك. وفيما كان انتباههم محصورًا في الصيد والتفرج، فوجئوا بسفينه لرجل من «موناكو» يُدعى "باجانينو"، كان قرصانًا ذائع الصيت، لم يلبث أن استولي على القارب المحمل بالنساء. ولما وقع نظره على تلك السيدة الجميلة – زوجة القاضي– نقلها إلى سفينته على مشهد من زوجها الذي كان قد وصل إلى الشاطئ في تلك الأثناء؛ إذ لم يشأ أن يتدخل في شيء، وإنما بادر بالإقلاع مبتعدًا عن مواطن الخطر.

وفي وسعك أن تتصور بسهولة مبلغ حزن "ريكاردو"؛ لذلك راح يشكو –عبثًا– في «بيزا» وغيرها نذالة أولئك القراصنة، دون أن يتبين أيهم الذي خطف زوجته، وإلى أين حملها؟

أما "باجانينو" فقد سر بالسيدة أيما سرور؛ وإذ وجدها غاية في الجمال، وكان بلا زوجة، عول على أن يحتفظ بها لتكون بمثابة زوجة له, حتى إذا وجدها تنوء تحت ثقل الهم والشجن، جعل يخاطبها بعبارات تفيض حنانًا وتسرية. فما إن هبط الليل، حتى كان "التقويم" قد سقط من "حزامها"، فنسيت كل شيء عن أيام الأعياد والصيام، لأن الهوى هون عليها الأمر بوسيلة عملية تختلف عن الألفاظ. وقبل أن تبلغ موناكو بزمن طويل، كان كل أثر للقاضي وقوانينه قد تبدد من رأسها، فعاشت مع باجانينو ترتشف كل ملذة في العالم.

وبعد قليل، تناهى إلى سمع "ريكاردو" ما أصبحت عليه زوجته، فأقلع نافد الصبر ليسترجعها، متوهمًا أنه خير من يصلح لهذه المهمة، معولاً على

أن يفتديها بأي مبلغ من المال. وحين وصل إلى «موناكو»، رآها ورأته، فبادرت في نفس الليل تخبر "باجانينو" وتحدثه بما اعتزمته. وفي الصباح التالي، تقابل "ريكاردو" مع "باجانينو"، فتعارفا في الحال، وإن ظل القرصان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئًا عن مهمة القاضي، في انتظار ما سوف يقدم عليه. حتى إذا سنحت الفرصة، أخذ "ريكاردو" يبين الدافع له على الحضور إلى هناك، ثم جعل يعرض بأسلوب مفرط في الرقة، أن لبلجانينو أن يطلب أية فدية يراها مناسبة لكي يرد إليه زوجته؛ فأجابه "باجانينو" في غاية الأدب والمجاملة: "أنت هنا على الرحب والسعة، ولكن المسألة بالاختصار كما يلي: أن لدي شابة في منزلي، ولست أدري ما إذا كانت زوجتك أو زوجه غيرك؛ لأنني ما عرفتك ولا عرفتها قبل أن تعيش معي. فإذا كنت زوجها كما تقول، فسوف أحضرها أمامك – ما دمت تبدو رجلاً فاضلاً– ولا شك أنها تعرفك.. فإذا أقرت قصتك ورغبت في أن تأخذها، فإن سلوكك من الطيبة بحيث يجعلني لا أطمع في غير المكافأة التي يرضيك أن تقدمها لي. أما إذا ثبت غير ذلك، فدعني أصارحك بأنك تظلمني كل الظلم بمحاولتك انتزاع الشابة مني، لأني شاب وأعرف – كأي شخص آخر– ما يجب أن أقدمه لأية امرأة، فما بالك وهذه أشهى امرأة وقعت عليها عيناي؟!"

قال ريكاردو: "إنها زوجتي بكل تأكيد يا سيدي، فتفضل وخذني إليها لتقنع في الحال؛ إذ إنها ستبادر إلى تطويق عنقي بذراعيها".. فأجاب باجانينو: "إذن هيا بنا".

ولما دخلا المنزل جلسا في الردهة معًا، أمر "باجانينو" باستدعاء

"بارتولوميا"، فتزينت زوجة القاضي ثم أقبلت دون أن تعير "ريكاردو" أي انتباه يعدو ما تعيره لأي غريب يصطحبه "باجانينو" إلى المنزل. فما إن رأي القاضي ذلك – وكان يتوقع أن تلقاه بفرحة بالغة – حتى استبدت به الدهشة وجعل يحدث نفسه: "لا شك أن الحزن الذي تولاني بسبب فقدها قد غير وجهي بحيث لم تعد تعرفني ثانية".. ثم قال لها: "لقد كلفني اصطحابك لصيد السمك غاليًا يا حبيبتي، لأنني لم أحزن في حياتي بمثل ما حزنت لفقدك. ومع ذلك فشد ما يبدو لي أنك لم تعرفيني، ومن ثم أخلدتِ إلى الصمت إخلادًا قاسيًا.. ألا ترين أنني زوجك "ريكاردو" الذي جاء مستعدًا لأية فدية يطلبها السيد –الذي نحن في بيته الآن– في سبيل استردادك؟.. لقد بلغ من كرم هذا السيد أن رضى بأن يعيدك إلى بالثمن الذي أحدده" .

وعندئذ التفتت السيدة إليه وقالت مبتسمه: "أتحدثني أنا يا سيدي؟.. انتبه جيدًا، فما أحسبك إلا موشكًا أن لا تعرف نفسك.. إذ لست أذكر أنني شاهدتك في حياتي كلها قبل الآن".. فرد قائلاً: "بل أجدر بك أنت أن تنتبهي إلى ما تقولين، وأن تتأمليني جيدًا لعلك تتذكرين إنني زوجك ريكاردو دي كينتسيكا".. فقالت: "معذرة يا سيدي إذا منعني حيائي من أن أمعن في التفرس فيك. ولكني تأملتك بما يكفي لأن يجعلني أتأكد من أنني لم أرك في حياتي من قبل".

وحسب "ريكاردو" أنها تعمد إلى ذلك التجاهل خوفًا من "باجانينو"، وعزوفًا منها عن الاعتراف أمام القرصان؛ فالتمس من هذا أن يسمح له بأن يحدثها على انفراد، وأجاب "باجانينو" بأنه يرحب بذلك الاقتراح،

على أن يعده بأن لا يحاول تقبيلها على الرغم منها. ثم أمرها بأن تصحب القاضي إلى طابق علوي لتسمع ما لديه من كلام وترد عليه بما تراه واجبًا. فلما أصبح الزوجان وحدهما، بدأ ريكاردو يقول: " وأسفاه يا حياتي.. يا روحي.. يا غاية أمنياتي الحلوة في الحياة.. ألا تعرفين زوجك ريكاردو الذي أحبك أكثر من نفسه؟ كيف يمكن أن يكون هذا؟ ترى هل تغيرت إلى هذا الحد يا جوهرتي؟ تأمليني مليًا".

فأخذت تضحك. وحتى لا يسترسل في عباراته، قال له: "أنت تعلم تمامًا أنني لا أملك أن أنسى إلى هذا الحد، فأنا أعرف أنك زوجي "ريكاردو دي كينتسيكا"، ولكني طوال إقامتي معك لم ألمس قط أنك قد عرفت عني شيئا. ولو أنك كنت حقيقة من الحكمة بقدر ما يتوهمونك، لأدركت أنني شابة تزخر بالحيوية، وأن الشابات يحتجن إلى شيء آخر غير الطعام والثياب، وإن منعهن الخفر والحياء من التصريح بذلك.. ولعل ضميرك ينبئك بالدور الذي لعبته معي.. وما دمت تؤثر دراسة القانون، فما كان يجدر بك أن تتزوج بحال.. إنك في الواقع تصلح داعية للأعياد وأيام الصيام، أكثر مما تصلح لأن تكون قاضيًا.. ومع ذلك، دعني أصارحك بأنك لو منحت حقولك من العطلات وأيام الراحة عدد ما منحت حقلي الصغير، لما جنيت حبة قمح واحدة.. إن الله قد أشفق عليّ أخيرًا؛ فعثرت على رجل أحبه من كل قلبي لأنه لا يعترف بإجازات في أيام الجمع والسبت والاعياد على غرارك، وإنما هو يؤدي واجبه الأسمى ليل نهار؛ ولذلك اعتزمت أن استمر معه ما استمر شبابي، وأن أرجيء دور الصيام إلى أن تتقدم بي السن. وعلى هذا، ففي وسعك أن تعود فورًا إلى

منزلك لتحرص بين جدرانه على تلك الأيام كما تشاء. "فاغتنم ريكاردو غاية الغم، وقال بعد أن فرغت من حديثها: "يا حبيبتي الغالية, ما هذا الذي أسمعه منك؟.. ألا اعتبار لديك لشرف أهلك وشرفك؟.. أتفضلين البقاء هنا في خطيئة دائمًا كخليلة لهذا الرجل على العيش في «بيزا» زوجة لي؟.. إنه لن يلبث أن يسأمك، ثم يطردك بكل احتقار، أما أنا سأظل أحبك دائمًا.. إذا قدر لي أن أموت، فسوف تصبحين سيدة على داري وأملاكي.. وهل يمكن أن تدفعك شهوة جامحة مخزية إلى إغفال شرفك وشرفي أنا الذي أحببتك أكثر من حياتي؟!.. لا تقولي هذا يا حبيبتي، وهيا معي يا كنزي.. أعدلي عن رأيك وارحلي معي، فإنني لم أنعم بيوم سعيد منذ انتزعت مني".

وردت الشابة قائلة: "لست أحب يا سيدي أن يهتم سواي بشرفي. وقد كان واجبًا على أهلي أن يحسبوا لهذا كله حسابه عندما أرغموني على أن أتزوج منك. فإذا كان أهلي قد أهملوا أمري عند الزواج، فلماذا أهتم بهم اليوم؟.. أما عن معيشتي في خطيئة أبدية خالدة، فلا تشغل بالك بأمر كهذا، لأنني اعتبر هنا زوجة لباجانينو. ونحن هنا نقضي الوقت في غبطة ولذة عارمتين, ثم إنك تعدني بأن تحاول أن تعوضني عما فات، فيسرني أن أعرف كيف يتأتى لك ذلك، اللهم إلا إذا كان قد غشيك تغير بذلك.. عُد وحاول أن تبقى على قيد الحياة، فإن هذا كل ما في وسعك أن تفعله، وإن كنت أرى أنك لا تعيش إلا على آلام الغير.. أما إنه سوف يلفظني ويطردني، فإنني حين يحدث هذا – وهو ما يبدو بعيدًا عن رأسه الآن– لن أعود إلى مخلوق حقير مثلك، بل إن الدنيا كفيلة بأن تمنحني مأوى أسكن

إليه، وأستريح بين جدرانه. وأحب أن أخبرك مرة أخرى أننا هنا لا أعياد ولا صيام لدينا؛ ولذلك فقد عولت على البقاء في هذا المكان، وعليك إذن أن تمضي مباشرة لحال سبيلك وإلا صرخت بأنك تحاول اغتصابي عنوة.

عندئذ غشيت القاضي حيرة محزنة، ووضح له كل الوضوح كيف كان أحمق عندما تزوج شابة في مثل هذا السن، فغادر الغرفة على التو، وتبادل مع "باجانينو" حديثًا مقتضبًا لا يغني فتيلاً.. واضطر في النهاية إلى ترك زوجته والعودة إلي «بيزا»، حيث أخذ يهيم على وجهه في الطرقات، وهو لا يرد على أي صديق يخاطبه إلا بقوله: "لن تمنح الفاجرة نفسها أية أجازات".

وسرعان ما قضى نحبه، وتناهى الخبر إلى "باجانينو", فبادر إلى الزواج من السيدة لِما لمسه من حبها له.. وعاش الاثنان معًا في سعادة وهناء ، متوافرين على مباشرة واجباتهما الزوجية، مقصيين شبح أيام الصوم والأعياد وما شابهها عن المنزل.

رهان.. على عفة زوجة

قالت "فيلومينا":

من الأقوال الشائعة: أن الخادع يكون دائمًا تحت رحمة المخدوع, ولن يثبت صحة هذا القول – في رأيي– سوى ظروف حدثت بالفعل في هذه الدنيا. وهذا ما أرجو أن أبينه لكم:

حدث أن التقى يومًا بعض التجار الإيطاليين في فندق بباريس، وكانوا قد جاءوا متفرقين في ظروف متباينة. واجتمعوا حول مائدة العشاء ذات مساء، فأخذوا يتبادلون الحديث في هناءة، متنقلين من موضوع إلى آخر، حتى انتهوا إلى الكلام عن زوجاتهم اللائي تركوهن وراءهم في إيطاليا. وإذ ذاك قال أحدهم متفكهًا: "لست أدري ما الذي تفعله زوجتي في غيابي، وإن كنت أعلم ما الذي أفعله. فأعتقد أنني إذا التقيت بحسناء تروق لي، نسيت حبي لزوجتي، وأقبلت أغترف من الملاذ السانحة".. فقال آخ: "وهذه حالي أنا أيضًا.. ذلك لأن زوجتي لن تحجم عن فعل ما يحلو لها – سواء عمِلت أنا به أو لم أعلم– وهكذا تتعادل كفتانا".. وشاطرهما الرأي تاجر ثالث، وأوشك القول أن يجتمع على أن الزوجات إذا تركن وحيدات في الوطن، لم يتورعن عن اغتنام الفرص في غياب أزواجهن.

ولم يقف في وجه هذا الرأي سوي تاجر واحد من بينهم، يدعي "برنابو لومين" من «جنوا» فقد أعلن أن الله أنعم عليه بزوجة تركزت فيها كل الفضائل التي تزين الإناث والذكور على السواء.. فهي شابة،

وجميلة.. وهي بارعة في "أشغال الإبرة" وكافة الفنون الجميلة الأخرى التي تمارسها النساء.. وقال "برنابو": إن ما من خادم يبدي من اليقظة والتفاني في خدمة مولاه إذا ما جلس إلى المائدة، مثل ما كانت تبدي هي في خدمة زوجها.. ثم إنها واسعة العقل، طيبة النشأة. وإلى جانب براعتها في الفروسية، وفي الصيد بالصقور، فإن أحدًا من التجار لم يكن ليباريها في علاج الأرقام وفهم الحسابات.. وانتهي "برنابو" إلى النقطة التي أثارت الحديث في البداية، فقال مقسمًا أن الأرض لا يمكن أن تحمل امرأة تفوق زوجته فضيلة وعفة وطهرًا، وإنه ليؤمن عن يقين بأنه لو غاب عنها عشر سنوات، بل لو غاب عنها العمر كله، لما هفت بعواطفها كلمة تسرية من شخص آخر.

وكان بين التجار الذين تناولوا الموضوع شاب يدعي "امبروجيولو" من «بياشترا»، أثار أكبر ضجة ساخرة حول ما قاله "برنابو" في مديح زوجته، وسأله عما إذا كان الإمبراطور قد أثره بهذا الامتياز دون بقة البشر؛ فأجاب "برنابو" – وقد بدأ يشعر بالغضب– بأن الذي خلع عليه هذه النعمة يفوق الإمبراطور قوة وسلطانًا.

فقال "امبروجيولو": "لا يداخلني أتفه شك في أنك تخال ما تقوله صدقًا، ولكنك – في رأيي– لم تحسب حسابًا لطبيعة الأمور.. إذ لو كنت قد فعلت، لما عجز ذهنك عن أن يجد من الأسباب ما يجعلك تتروى في الأمر، فلا تتحمس له بهذا الشكل. وما ينبغي لك أن تتصور أننا إذ تكلمنا عن زوجاتنا بكل هذه الصراحة والتحرر، نراهن صنفًا يغاير صنف زوجتك، ولكننا ننظر إلى طبيعة ميول النساء عامة. وأرجو أن تسمح لي

بأن أناقشك قليلاً في هذا الموضوع. ولقد كنت أعتقد دائمًا أن الرجل هو أنبل مخلوقات الله، وأن المرأة تأتي في الدرجة الثانية بعده، وبما أن الرجل قد أتيح له أن يكون أقرب إلى الكمال؛ لذلك فمن الطبيعي أن يكون أكثر اتزانًا واستقرارًا. أما النساء، فهن دائمًا أكثر تذبذبًا وتقلبًا، وفي وسعي أن أبرهن على ذلك بكثير من الأدلة، ولكني أدع هذا الآن جانبًا. وإذا كان الرجل – الذي أتيح له نصيب أكبر من الاستقرار– لا يملك أن.. لن أقول: أن يقاوم امرأة تغريه، وإنما أذهب إلى اكثر من ذلك، فأقول: "إذا كان الرجل يشتهي، ويبذل كل ما في وسعه ليكون في رفقة امرأة يميل إليها، لا مرة واحدة في كل شهر، إنما ألف مرة في اليوم إن استطاع– فما ظنك بالمرأة، وهي ضعيفة بفطرتها؟.. وكيف تراها تقوى على صد ألوان الإغراء، والغزل، والهدايا، وآلاف الوسائل التي يحسن استعمالها العاشق الواسع الحيلة؟.. مهما تؤكد لي أنها تقوى على المقاومة، فلن أصدقك.. إنك تقول أن زوجتك من لحم ودم، فهي والحال هذه عرضة لكافة الشهوات التي تتعرض لها بقية النساء. ومن ثم فهي – رغم عفتها– معرضة لأن تفعل ما تفعله النساء الأخريات. لذلك، ما كان لك أن تنكر ما لطبيعة النساء من خواص بكل هذا التحمس والتأكيد، وأن تزعم العكس".

وهنا أجاب برنابو: "إنني تاجر، ولست فيلسوفًا، ومن ثم فسوف أرد عليك بمنطق بعيد عن الفلسفة، فأقول أن ما ذكرته قد ينطبق على نساء قليلات الإدراك، لا يشعرن بالحياء. أما العاقلات؛ فيحترمن شرفهن، ويتشبثن به في صلابة لا تعلى عن صلابة الرجال.. ومن هذا الصنف

زوجتي".

فقال امبروجيولو: "قد يكون هذا حقًا لو أن المرأة لها قرن ينبت في قمة رأسها كلما ارتكبت خطيئة ليشهد عليها. ولكن الأمر أبعد من هذا. وإذا كانت المرأة عاقلة، فإن هذا أدعى لأن يجعل اكتشاف خطيئتها عسيرًا.. ولما كان العار والهوان لا يحدثان إلا إذا انكشف السر؛ لذلك فمن المؤكد أن النساء لا يتورعن عما يمكن أن يظل سرًا مكتومًا.. فإذا تمنعن بعد ذلك، فإنما يتمنعن لأن نزواتهن تملي هذا التمنع.. ومن ثم، فخذها قاعدة: إن المرأة لا تكون عفيفة إلا لأن أحدًا لم يراودها مطلقًا، أو لأنها هي التي راودت الرجل فأعرض عنها.. ومع أنني واثق من هذا الرأي على ضوء الطبيعة والمنطق، إلا إني ما كنت لأقدم على تأكيده لو لم أكن قد جربت نزوات وأهواء كثير من النساء المتباينات في الخلق. كذلك دعني أنبئك بأنه إذا اتيحت لي صحبة زوجتك –التي تصورها على هذه الصورة الفاضلة– لما ساورني شك في أن بوسعي أن أنال منها ما نلت من غيرها".

وأثار هذا التحدي ثائرة برنابو، فصاح: "إن الجدال لن ينتهي بنا إلى نتيجة، فأنت تؤكد وجهة نظرك، وأنا أؤكد وجهة نظري، ولكن.. إذا كنت مصرًا على أن النساء قريبات المنال بهذا الشكل، وإذا كان هذا هو رأيك في مدى قدرتك في هذا الصدد؛ فدعني – لكي أقنعك– أراهنك على رأسي إذا أنت استطعت أن تستميل زوجتي.. ولن أشترط عليك أكثر من أن تنزل لي عن ألف جنية فلورنسي ذهبي، إذا أنت أخفقت في استمالتها".. فأجاب امبروجيولو في تحمس عارم.. إذا كنت مصرًا على التجربة، فضع خمسة آلاف جنية فلورنسي –وهي أقل قيمة من حياتك–

في مقابل الألف التي أقدمها.. ولما كنت لم تحدد وقتًا معينًا للرهان، فإنني سأسعى إلى «جنوا» فورًا، وفي أقل من ثلاثة أشهر من يوم رحيلي، سأفوز بزوجتك، وسأحضر لك من الأدلة الغالية ما لن تملك إزاءه سوى الاعتراف بفوزي.. على شريطة أن تقسم لي بشرفك أنك لن تذهب إلى «جنوا» في هذه الأثناء، ولن تكتب لزوجتك عن هذه المسألة".

وأعرب "برنابو" عن قبوله الرهان، ومع أن التجار الآخرين بذلوا كل ما في وسعهم كي يحولوا دون ذلك –إدراكًا منهم لما يمكن أن يترتب عليه من شر– إلا أن الرجلين كانا على درجة من الانفعال دفعتهما إلى أن يبادرا بالتوقيع على ميثاق، رغم كل ما بذله أصدقاؤهما. وهكذا، بقي "برنابو" في باريس، بينما رحل "امبروجيولو" إلى «جنوا» دون أن يضيع وقتًا، فمكث يومًا أو اثنين يتقصى – وبكل حذر ممكن – اسم الشارع الذي كانت السيدة تقيم فيه، ويتحرى عن أخلاقها، وسرعان ما علم أن "برنابو" لم يقل غير الحق، بل وسمع أكثر مما قال الرجل عن مدى تمسك زوجته بعفتها؛ فأدرك أنه تورط في مهمة طائشة. ولكنه ما لبث أن التقى بامرأة بائسة كانت تتردد على الدار، وكانت السيدة تغمرها بعطفها، فعمل على استمالتها بأن أغدق عليها من المال ما جعلها تساعده على أن يلج الدار في صندوق صنع طبقًا لتعليماته.. ولم يقتصر الأمر على دخوله الدار، بل إن الصندوق حمل إلى مخدع السيدة – زيادة في الاطمئنان– إذ زعمت المرأة البائسة أنها راحلة، وأنها أودعت هذا الصندوق متاعها ليكون أمانة لدى السيدة.

وعندما حل المساء، وحدس الرجل أن السيدة قد نامت، فتح

الصندوق بأداة خاصة كان قد حملها معه لهذا الغرض، ودلف بخفة في الغرفة. وعلى ضوء شمعة كانت موقدة، درس في عناية شكل الغرفة وموقعها، وما تضمه من لوحات، وكل ما يسترعي الانتباه من معالم، وحرص على أن يحتفظ بها في ذاكرته. ثم اقترب من السرير، فرأى السيدة والي جانبها فتاه صغيرة، وقد استغرقت الاثنتان في النوم، فكشف عن السيدة الغطاء، وتبين أنها – وهي في ثوب النوم– جميلة، وكأنها ترتدي أبدع الثياب.. بيد أنه لم يلمح أيّة علامة يستطيع أن يحملها معه، اللهم إلا شامة تحت الثدي الأيسر، تحيط بها شعيرات قلائل ذهبية اللون، فاكتفي بها. ولما لم يجد من نفسه الجرأة –إزاء ما عرفه عن خلق السيدة– على أن يطيع شهواته، وأن يمضي إلى أبعد من هذا، أعاد الغطاء إلى موضعه، ثم أخذ كيسا النقود، ووشاحًا، وخاتمًا، وحزامًا؛ فوضعها جميعًا في صندوقه، وعاد إلى مكمنه بداخله، ثم أوصده كما كان من قبل، وبقى بداخله ليلتين، دون أن تفطن السيدة إلى شيء. وفي اليوم الثالث أقبلت المرأة الفقيرة، واستردت الصندوق. وبعد أن أرضاها "أمبروجيولو" كما وعدها، أسرع عائدًا إلى باريس قبل انتهاء الفترة المتفق عليها، حاملاً معه أدلته.. وهناك، جمع التجار الذين كانوا حضورًا عندما عقد الرهان، وأعلن لبرنابو أنه ربح، وأنه أحضر القرائن التي وعده بها.

وبدأ بوصف الغرفة وما فيها من صور، ثم أظهر تلك الأشياء التي أخذها؛ زاعمًا أن السيدة أعطته إياها. واعترف "برنابو" بأن الغرفة كانت كما وصفها، وتذكر أيضًا أن تلك الأشياء كانت من مقتنيات زوجته. ولكنه قال أن "امبروجيولو" كان يستطيع أن يحصل على أوصاف الغرفة

وعلي تلك القرائن من بعض الخدم؛ ولهذا، فإن ما وصل إليه لا يكفي مبررًا لفوزه بالرهان، ما لم يكن لديه مزيد من الأدلة.

وقال "امبروجيولو" ردا على هذا: "الواقع أن ما قدمته خليق بأن يقنعك. أما وأنت تدفعني إلى أن أقول أكثر من هذا، فاعلم إذن أن لمدام "زنيفرا " – زوجتك – شامة تحت الثدي الأيسر، تحيط بها شعيرات واهنة كأنها خيوط رفيعة من ذهب".. وبهت "برنابو" حين سمع هذا، وأحس كان خنجرًا قد غاص في قلبه، واربَدّ وجهه بشكل أقنع الآخرين – رغم صمته– بأن "امبروجيولو" لم يقل غير الصدق.

وقال "برنابو" بعد برهة: "إن ما يقوله امبروجيولو هو الحق أيها السادة، وله – بعد أن خسرت الرهان– أن يأتيني متي يشاء، لأنقده المبلغ".

وهكذا، دفع المبلغ في اليوم التالي، ثم غادر إلى «جنوا» وقد ثارت ضغينته ضد زوجته إلى أبعد حد، فأوى إلى بيت ريفي كان يمتلكه على بعد عشرين ميلاً من المدينة، وأرسل خادمًا عهد اليه بجوادين ورسالة للزوجة ينبئها فيها بعودته، ويسألها أن توافيه مع الخادم.. ثم أوصى الخادم – في الوقت ذاته– بأن يرهق أنفاسها بمجرد أن يصل معها إلى مكان آمن من الطريق، لم يؤرب إليه.

وحمل الخادم الرسالة إلى سيدته التي استقبلت النبأ بفرحة طاغية، وبادرت في اليوم التالي إلى الرحيل مع الخادم. وأخذ خلال الطريق يتبادلان الحديث، حتى بلغا بقعة منعزلة محوّطة بالأشجار، حدس الخادم أنها صالحة

لتنفيذ أوامر سيده، فشحذ سكينًا، وأمسك بذراع الزوجة قائلا: "اسلمي أمرك لله يا سيدتي لأنك ستلقين حتفك هنا" .. فذُهلت واستحلفته أن ينبئها – قبل أن يقضي عليها– بما فعلته واستوجب هذا المصير. فقال الخادم: "إنكِ لم تضريني في شيء يا سيدتي، كما أنني لست أدري ماذا أغضب زوجك منك. كل ما أملك أن أقوله هو أنه أمرني بأن أقتلك في الطريق، دون أن أشفق عليك، وهددني بأن يشنقني إذا أنا لم أنفذ أمره.. وإنك تعلمين مدى سلطانه علي، فأنا لا أملك أن أعصي له أمرًا، وإن الله ليعلم كم أنا آسف من أجلك، ولكن لا حيلة لي في الأمر".

وبكت السيدة قائلة: "واحسرتاه.. إنك لن تقتلني إرضاءً لشخص آخر، انا التي لم أسيء يومًا إليك.. إن الله العليم بكل شيء، ليشهد بأنني لم أرتكب ما يجعلني استحق هذا من زوجي. ولكن، دعنا من هذا. بوسعك – إذا شئت– أن ترضي الله، ومولاك، وترضيني أنا، على الوجه التالي: خذ ثيابي – ودع لي معطفك وقبعتك فقط– واحملها إلى مولاي ومولاك، وقل له إنك قتلتني. وأقسم لك بالحياة التي سأدين لك بها، أنني سأذهب إلى حيث لا يسمع عن أمري، لا مولاك, ولا أنت، ولا أي فرد في هذه البلاد".. واقتنع الخادم بسهولة؛ إذ كان كارها للجريمة، فترك لها معطفه وقبعته وما كانت تحمل من مال قليل، واستحلفها أن لا تبقى في تلك البلاد. ثم مضى فورًا إلى سيده، وأنبأه بأنه قد صدع بأوامره، وأنه ترك جثتها نهبًا للذئاب. وما لبث "برنابو" أن عاد إلى «جنوا»، بعد فترة من الزمن. وتعرض لكثير من اللوم عندما اكتشف الأمر.

أما السيدة فقد بقيت وحيدة حتى هبط الليل، ثم استخفت قدر ما

وسعها الاستخفاء والتنكر، وسعت إلى قرية قريبة بحيث استأمنت امرأة عجوز على بعض سرها ورغبتها. وقامت بإصلاح المعطف، وصنعت من قميصها سروالا «بنطلون» فضفاضًا، ثم قصت شعرها، وتنكرت في شكل بحار. وجهها بعد ذلك صوب الشاطئ حيث التقت بسيد من «قطالونيا» يُدعى السنيور "اينكارارك" كان قد هبط إلى البر في «آلبا»، ففاتحته في أن تعمل في خدمته، حتى إذا قبل، صعدت إلى سفينته وقد اتخذت لنفسها اسم "سيكوران ودا فانالي"؛ أي الناجي من حتفه.. وعلى السفينة حصلت على ثياب زادت من استخفائها، وأثبتت براعة وذكاء في خدمة سيدها، حتى ظفرت برضاه.

وما لبث ذلك السيد أن أبحر إلى «الإسكندرية»، حاملاً بعض الهدايا للسلطان، الذي دعاه أكثر من مرة إلى مائدته، فلما رأي يقظة "سيكورانو" في خدمة السيد، سأله أن ينزل له عنها، فقبل الرجل كارهًا. وسرعان ما صارت مقربة من السلطان، كما كانت مقربة من سيدها السابق.

وكان ثمة احتفال كبير يقام في فتره معينة من العام في مدينه «عكا» التي كانت تحت حكم السلطان، وكان كثير من التجار المسيحيين والأتراك يفدون على المدينة في هذه المناسبة، وقد اعتاد السلطان أن يوفد – إلى جانب الضباط الذين يعهد إليهم بحماية أولئك التجار– مندوبًا خاصًا يمثله. فلما اقترب موعد الاحتفال، قرر أن يوفد "سيكورانو" لهذا الغرض، لما كانت تتقنه من لغات. وهكذا وصلت السيدة إلى «عكا»، ولقائدي الشرطة المكلفين بحراسة التجار. وهناك، قامت بمهام منصبها بحذق

ومهارة، وكانت تختلط بالتجار الوافدين من صقلية، وبيزا، وجنوا، والبندقية، وغيرها من مدن إيطاليا، وتسعى إلى التعرف بهم.

وفيما كانت ذات يوم بحانوت تاجر من البندقية، وقعت عيناها على كيس وحزام – بين التحف– عرفتها في الحال. فقد كانا لها يومًا. بيد أنها لم تبد شيئًا مما ساورها، وإنما سألت عن صاحبهما، وعما إذا كانا معروضين للبيع. وكانت المصادفة قد ساقت "امبروجيولو" مع من قدم من التجار، حاملاً معه تجارة كبيرة. فلما سمع أن قائد الحرس سأل عن صاحب الكيس والحزام، تقدم إليه وقال ضاحكًا: "إنهما لي يا سيدي، وليسا معروضين للبيع. ولكنهما رهن إشارتك إذا كنت تريدهما".

وحين رأته "سيكورانو" يضحك، ظنت أن في أفعالها ما استوجب هذا الضحك – وأنا رجل السيف– أسال عن تحف نسوية"؛ فأجاب امبروجيولو: "لست اضحك لهذا يا سيدي، وإنما أضحك للطريقة التي حصلت أنا بها على هاتين التحفتين".. فقالت: "إذا لم يكن ثمة ما يضايقك في هذا يا سيدي، فأرجو أن تروي لي كيف حصلت عليها؟".. فأجاب امبروجيولو: "لقد أعطتنيهما سيدة من «جنوا» تُدعى "زنيفرا"، متزوجة من رجل يدعي "برنابو لوميلين"، في ذات ليلة بعد أن ضاجعتها، ورغبت إلى في أن استبقيهما تذكارًا لهذه الليلة. ولكن الذي أضحكني هو غباء زوجها. فقد راهنني على خمسة الاف جنية فلوريني، في مقابل ألف، إذا استطعت أن أبلغ من زوجته مناي. وقد ظفرت بذلك، وكسبت الرهان، في حين إنه عاد إلى جنوا فقتلها – على ما علمت – رغم أنه كان الأجدر بالعقاب لما أبداه من حماقة مزرية".

وتبينت "سيكورانو" إذ ذاك سر تصرف "برنابو" وغضبه عليها. ولما رأت أن هذا الرجل هو السبب الأوحد لذلك، عولت على أن لا تفلته من العقاب، ولكنها تظاهرت بالإعجاب بقصته، وعمدت إلى توثيق صداقتها معه، حتى إذا انتهت الاحتفالات، اصطحبته إلى «الإسكندرية»، وأغرته على أن يستأجر لنفسه حانوتًا بها، وأغدقت عليه من المال ما حبب إليه البقاء هناك.

وتولتها رغبه جامحة في أن تثبت براءتها لزوجها، فلم يهدأ لها بال حتى اتّفقت مع بعض تجار «جنوا» على أن يستدرجوا "برنابو" إلى «الإسكندرية» بحجة ما. فلما جاء في حالة يرثى لها –إثر مؤامرة لاستدراجه – عهدت به إلى صديق لها كي يستبقيه في داره، حتى تحين الفرصة لتنفيذ غايتها. وكانت قد حملت "امبروجيول" على أن يروي للسلطان قصته، فأعجب السلطان بالحادث. وما إن وصل زوجها، حتى عولت على ألا تضيع وقتاً، ومن ثم تحينت فرصة مناسبة، وأغرت السلطان على أن يستدعي "امبروجيولو", و "برنابو" ليمثلا بين يديه، وأن يجبر الأول على أن يروي –أمام الثاني– حقيقة القصة، ولو عمد إلى القوة كي يدفعه إلى ذلك، إذا هو رفض.

وعلى هذا، التقى الرجلان بين يدي السلطان، الذي أمر "أمبروجيولو" – وهو مقطب الأسارير– أن يروي الحقيقة أمام عدد من الناس.. يروي حقيقة ما فعل كي يربح من "برنابو" الرهان.. وكانت "سيكورانو" حاضرة – في رجولتها المنتحلة– فلجأ إليها "امبروجيولو" ولكنها أجابته والغضب يتطاير شررًا من عينيها، بأنه لن يفلت من السياط

إذا أبى أن يروي الحقيقة. وأرهبه ما لاقى من تجهم السلطان و "سيكورانو"، وما تبدو أمامه من بوادر الإكراه، وتوقع أن لا يعدو عقابه أن يرد إلى "برنابو" المبلغ الذي استولى عليه منه، وأن يعوضه عما سبب له من متاعب وآلام، ومما ثم شرع يقص كل ما حصل بالتفصيل. فلما فرغ، التفتت "سيكورانو" إلى "برنابو" —بوصفها من رجال السلطان المقربين— وسألته: وما الذي فعلته يا سيدي تحت تأثير هذه الأكذوبة؟".

فأجاب: «لقد أطاش الغضب عقلي لما فقدت من مال، ولما تعرضت له من عار، ولما ظننت أنه لحق بي من أذى على يدي زوجتي، فأمرت أحد خدمي بقتلها، وسرعان ما التهمت الذئاب جثتها، كما أخبرني».

ولم يكن السلطان ومن حضروا مجلسه يدرون السبب في إفشاء كل ما قيل أمامهم؛ لذلك تحولت «سيكورانو» إلى السلطان، قائلة: «لقد رأيت يا مولاي – من هذه القصة– ما أصاب المرأة المسكينة على أيدي العاشق والزوج: فقد جردها أحدهما من سمعتها النقية بطائفة من الأكاذيب، ودمر حياء زوجها في الوقت ذاته.. بينما آمن الثاني بأكاذيب صاحبة أكثر من إيمانه بعفة زوجته – وكان ينبغي أن تكون المعاشرة الطويلة قد أكدت له طهرها– فقتلها، وترك جثتها للذئاب.. هذه هي الذكرى التي حملاها لها، وهما اليوم لا يدريان لها مصيرًا. فإذا شئت أن تزداد فهما للقصة، وأن تستجيب لالتماس أرفعه إليك بأن تعاقب المخادع، وأن تعفو عن المخدوع؛ فاسمح لتلك الضحية أن تظهر أمامك، وأمامهما».

وكان السلطان على استعداد لأن يلبي أي طلب لسيكورانو، ومن ثم

وافق على دعوة السيدة إلى مجلسه، فذهل «برنابو» إذ كان يحسبها قد ماتت، وبدأ «امبروجيولو» يدرك ما يوشك أن يحدث، كما بدأ يشعر أن العقاب خليق بأن يتجاوز مجرد رد المال.. ولم يدرِ هل يخشى ظهور السيدة أو يرجوه؛ إذ استبدت به الحيرة من أمره، واتجه بكل اهتمامه إلى ترقب ظهورها.

وحين أذن السلطان بدعوة السيدة، ألقت «سيكورانو» بنفسها عند قدميه، وتخلت لتوها عن نبرة الرجولة في صوتها، ولم تعد ترجو سوى أن تسترد مظهرها الحقيقي، وهتفت: «أنا يا مولاي» «زنيفرا» التعسة، الشقية، التي طافت بالعالم –خلال السنوات الست الماضية– متنكرة في هيئة الرجال، بعد أن لاقت أحط أنواع الإيذاء على يدي هذا الوغد «امبروجيولو»، ويدي هذا الرجل القاسي، الظالم، الذي عهد بي إلى خادم يقتلني ويلقي بجثتي إلى الذئاب». وفتحت صدر معطفها فكشفت للجميع عن مظهر أنوثتها، ثم التفتت إلى «امبروجيولو» تسأله متى ضاجعها كما زعم من قبل؟ ولكن الشعور بالخزي ألجمه، إذ عرفها.

وكان السلطان قد أخذها – منذ ألحقها بخدمته– على أنها رجل؛ لذلك بهت لما سمع ولما رأى، حتى خال إنه في حلم. على أنه لم يلبث أن تمالك نفسه، فشهد أمام الملأ بحسن سيرتها، وأعلن أن «زنيفرا» –التي كانت تعرف باسم «سيكورانو»– على قيد الحياة باقية، وأمر لها بخلعة من الثياب تليق بها، وصفح عن «برنابو» برجاء منها. وكان الرجل أهلاً للموت، ولكنه جثا على ركبتيه يسألها أن تغفر له؛ فصفحت عنه، وشفعت له لدى السلطان، رغم أنه لم يكن جديرًا بالشفاعة.. أما «امبروجيولو»،

فقد أمر السلطان بتعليقه في أهم مكان بالمدينة، وبطلاء جسده بالعسل حتى تنهشه الذباب والجوارح؛ فنفذ العقاب فيه فورًا.. كما أمر بأن تؤول كل ممتلكات الوغد إلى «زنيفرا». وأقام مأدبة حافلة لبرنابو– بوصفه زوجها– ولها بوصفها أجدر النساء بالتقدير. وأنعم عليها بوسام، ومنحها مبلغًا كبيرًا من المال، ثم أمر للزوجين بسفينة تظل تحت أمرهما لتقلهما إلى «جنوا» متى شاءا.

ومالبثا أن رحلا مغتبطين، فاستقبلا في «جنوا» بأجلى مظاهر الاحترام، لاسيما «زنيفرا»، التي ظن القوم أنها ماتت، والتي ظلت عفتها ترفعها إلى أرقي مكانة طيلة حياتها.

أما «امبروجيولو»، فقد نهشت الجوارح والذباب لحمه، فلم تبق غير عظامه، التي ربط بعضها إلى بعض، وظلت معلقة زمنًا، تشهد بخسته ونذالته.

وهكذا قدر للمخادع أن يقع تحت رحمة المخدوع.

اليوم الثالث

في مخدع الملكة

قالت «بامبينيا»:

من الناس من لا يبدون فطنة, أو رزانه في معرفة ما لم يكن يجهل معرفته، حتى ليخالوا أنهم إذ يكشفون عيوب الغير، إنما يخفي وطأة عارهم؛ في حين أنهم لا يزيدون هذا العار إلا رسوخًا، وهذه الحقيقة سأبينها بعكسها.. إذ سأروي لكم كيف استطاع شخص أن يخدع ملكًا واسع العقل, كبير المقام:

اتّخذ «أجيلولف» – ملك اللومبارد– مدينة «بافيا» عاصمة له، كما فعل سلفه، وتزوج من «تويدلينجا» أرمله «فيتري» الذى كان هو الآخر ملكًا للومبارد من قبل. وكانت الملكة جميلة، عفيفة، ولكنها لم تكن تدرك أن ثمة عاديًا يشقى بحبها، إذ قدر لسائس من رجال حظائر خيلها أن يكترث بها في غير اعتدال.. وكان رجلاً وضيع المنبت، ولكنه إذًا – بالنسبة لكافة الاعتبارات الأخرى– فوق المركز الذي هو عليه، إذ كان في وسامة الملك, وبهاء طلعته وقوامه. على أن ضعة قدره لم تمنعه من أن يرى أن العاطفة التي اضطرمت في صدره ستؤدي به الى التهلكة، ومن ثم فقد كان من رجاحة العقل بحيث قرر أن لا يكشف عن هذه العاطفة لأحد.. لا للملكة (خلال نظراته) فقد جعل من نفسه رقيبًا على حواسه – لاسيما

على عينيه– حتى لا تعكسا وجده.

ومع أن الرجل عاش دون أن يساوره أضأل أمل في أن يصل إلى مناه، إلا أنه لم يكن يتمالك أن يتيه فخارًا إذ ارتقى بهواه إلى هذه السماء.. سماء الملكة.. ولما كان هواه قد استعبده، فإنه كان يبذل فوق العناية العادية – التي كان يبديها زملاؤه في أداء كل ما كان يخاله خليقًا بارتضاء أسرتها. فكانت الملكة – إذا ما شاءت أن تخرج للنزهة على جواد– كان هذا الجواد الذي يؤثره على سواه برعايته, ولم يكن يتحول عن إمساك الركاب للملكة.

والحب – كما نعرفه– يزداد عنفًا كلما قلّت احتمالات التوفيق في ميدانه.. وهكذا كانت حال ذلك السائس. وإذ الفتى فكر بإخبارها هذا الحمل الثقيل، وغلبته تباريح الهوى. ولمَّا كان في إذاعة أمر هذا الحب هلاكه ودماره، فقد اعتاد الفتى الموت العاجل وآثره على الحياة في هوان وعذاب. وبعد تفكير وتدبير، رأى أن يختار لنفسه ميتة تُعبر عن الغرض الذي آثر ترك الحياة من أجله – وهو حب الملكة– وتتيح له في الوقت نفسه فرصة نادرة يروي فيها شيئًا من ظمأ نفسه.

واستبعد من خياله فكرة ألحت عليه في أن يفاتح الملكة؛ إذ أن يبعث إليها برسالة يودعها عاطفته المتأججة. فما رأى من الكتابة أي نفع، ولم يبق إذن سوى أن يقابلها، أو يجمعهما جدران حجرة واحدة.. أو فراش واحد. فلم يتبقى من سبيل إلى الوصول إلى مخدع الملكة، إلا إذا تنكر في زي الملك، فهو الوحيد بين الرجال الذي يملك الحق في فتح باب المخدع.

فما كان من الرجل إلا أن يتسلل إلى القصر ليلة بعد ليلة، فيكمن في البهو الفاصل بين جناح الملك ومخدع الملكة، ليرقب الملك في طريقه إلى زوجته. كان يراه يغادر جناحه متدثرًا, وقد حمل في يمناه مشعلًا مُضاءً، وفي يسراه عصا كالصولجان.. حتى إذا بلغ المخدع، طرقه بالعصا مرة أو اثنتين، فيفتح الباب، وتمتد يد وصيفة تتناول منه المشعل. ولاحظ أن الملك كان يعود بالطريقة ذاتها؛ فعول على أن يحذو حذوه. وحصل على عباءة كعباءة الملك، ومشعل، وزناد. وعمد أولاً إلى الاستحمام؛ فنظف جسده جيدًا ليزيل عنه رائحة الحظائر كي لا تفضحه لدى الملكة، ثم كمن في مخبأه المعتاد، حتى إذا نام الجميع، رأى أن الوقت قد حان فإما أرضى رغباته، وإما جلب على نفسه – بجرأته – ذلك الموت الذي طالما اشتهاه.

وهكذا قدح الزناد، فأوقد المشعل، والتف جيدًا في العباءة, وسار إلى الباب فقرعه مرتين بعصاه. وفتحت له وصيفة يغالبها النعاس، فتناولت المشعل ومضت الى أحد الأركان، أما هو فقد دخل، وخلع عنه عباءته، واندس في فراش الملكة، فاحتواها بين ذراعيه وأبدى شيئا من التذمر يبرز به صمته؛ إذ كان يعرف أن من طباع الملك أنه كان لا يتكلم أحيانًا، فلا يجرؤ أحد على أن يكلمه.

وأشبع رغباته كل إشباع.. حتى إذا أحس أن بقاءه لم يعد مأمونًا، نهض وتسلل عائدًا الى غرفته. وما أن استقر في فراشه، حتى أقبل الملك على مخدع الملكة، فحياها في وجد، الأمر الذي أدهشها وحملها على أن تقول له: «ما الذى جرى لك الليلة يا مولاي؟.. إنك لم تبرحني إلا منذ لحظة، وها أنت ذا تعود أشد من ذي قبل شوقًا.. ألا رفقًا بصحتك»..

وأدرك الملك لتوه أن شخصًا خدعها وانتحل مظهره وتصرفاته.

ولما كان رجلا عاقلاً – إذ أدرك بثاقب فكره أنها لم تفطن مطلقًا الى ذلك، كما أن أحدًا لم يعلم به– فقد قرر أن يدعها على ما توهمته، ولم يفعل ما كان يفعله الكثيرون في مثل موقفه، فيقول: «ما جئتك الليلة قبل هذه المرة، فمن ذا الذي كان هنا؟.. وكيف جاء؟.. وكيف انصرف؟».. كان هذا كفيلا بأن يثير السيدة العظيمة، ويسبب لها قلقًا وهمومًا.. أما الصمت الذي التزمه الملك؛ فقد وقاه كل لوم. ولكنه قال ونفسه أبعد ما تكون عن الهدوء الذي بدا على محياه: «كيف تعجبين يا مليكتي؟.. ألا ترين أن من الطبيعي – وقد نعمت بالزيارة الأولى– أن أكررها؟». فقالت الملكة: «بلى، ولكنى مع ذلك أكرر رجائي بأن ترعى صحتك».. فأجاب: «يروق لي أن أستجيب في هذه المرة لنصحك، ولذا سأنسحب».

وكان غضبه قد اشتد في تلك الأثناء؛ فجذب عباءته، وغادر مخدعها وهو يتميز غيظًا، وقد وطد العزم على أن يكتشف ذلك العابث ما أمكنه. فقد حدس أنه ولابد من أهل القصر؛ إذ لم يكن ثمة منفذ لأحد من خارج القصر، ولا إلى خارجه.. لذلك تزود الملك بمصباح خافت، ومضى الى قاعة طويلة تقع فوق حظائر الخيل، وينام فيها الخدم جميعًا، كل في سريره. وكان فكره قد أوحى إليه بأن نبضات وخفقات قلب أي امرئ، لابد وأن تظل فترة مضطربة بعد مغامرة كهذه. ومن ثم شرع يفحص النيام – واحد بعد آخر– من أول القاعة إلى آخرها. فإذا بهم جميعًا مستغرقون في النوم، عدا الشخص الذي كان مع الملكة، والذي لم يكد يرى الملك مقبلا، حتى حدس ما جاء به، فخشى أن يشي انفعاله بذنبه، فيقطع الملك عنقه. على

أنه اطمأن حين رأى أن الملك غير مسلح، وقدر أن من الخير أن يتصنع النوم لينتظر ما سوف يفعله «اجيلولف».. ومضى الملك يتحسس صدور خدمه، حتى بلغ أخيرًا ذلك الشخص، فقال لنفسه: «هذا هو الرجل».

ولما كان حريصًا على أن لا يعرف أحد ما اعتزمه، فقد أمسك عن فعل أي شيء، عدا إنه قص خصله من شعر الرجل بمقص كان في جيبه – وكان رجال ذلك العهد يحتفظون بشعور طويلة – وقدر أنه يستطيع بذلك أن يتعرف على الرجل بسهولة في الصباح التالي، ومن ثم عاد الى مخدعه. بيّد أن الرجل كان على قدر من الذكاء أوحى إليه بما أنتوى الملك؛ لذلك عمد لفوره الى مقص كانوا يستخدمونه في قص شعور الخيل، وقص خصلات من شعور عدد من الرجال بالطريقة التي اتبعها الملك. ثم أوى إلى فراشه ثانية دون أن يلمحه أحد.

ونهض الملك مبكرًا في الصباح؛ فأمر بأن يمثِل جميع خدمه بين يديه قبل أن تفتح أبواب القصر. وسرعان ما وقف الجميع أمامه ورؤوسهم عارية. وما أن شرع يتأملهم واحدًا بعد الآخر بحثًا عن الشخص الذي ميزه، حتى لاحظ أن معظمهم تنقصه خصلة من الشعر، فعجب في نفسه قائلا: «مهما يكن من ضعة هذا الشخص الذي أبحث عنه، إلا أنه أوتي ذكاء غير عادي». وأدرك أنه لن يستطيع معرفة الشخص دون أن يثير ضجة كبيرة. وإذ كان زاهدًا في الزج بنفسه في فضيحة من أجل انتقام لن يروي غلته، فقد رأى من الخير أن يكتفي بأن يجعل ذلك الشخص يعرف– بكلمه أو اثنتين– أن أمره قد كشف، وأنه تحت المراقبة، والويل له في المستقبل إذا فكر في الإقدام ثانية على ما أقدم عليه.

لذلك التفت إلى الخدم قائلا: «ليخلد هذا الشخص –أيًا كان– إلى الصمت، ولا يعاود فعلته.. هيا الى أعمالكم».

ولو أن امرءًا غيره كان في مكانه, لعذبهم جميعًا حتى يعرف ما قد يكون من الأفضل أن يظل مكتومًا؛ إذ لن يوفيه أي انتقام جزاءه، بل إنه سيذكي الفضيحة، ويلحق بالسيدة العار. وعجب الخدم في أنفسهم لكلمات الملك، وأخذ كل منهم يسأل الآخر عن معناها، ولكن أحدًا منهم لم يفهمها اللهم إلا ذلك الشخص الذي كان مقصودًا بها، والذي احتفظ بالسر في نفسه، وكتمه طيلة حياة الملك دون أن يجرؤ قط على تعري نفسه لمثل ذلك الخطر مرة أخرى.

جواد.. مقابل امرأة

قالت «اليسا»:

أوتي كثير من الناس قدرًا كبيرًا من المعرفة، يوحي إليهم بأن سواهم لم يؤت منها شيئًا على الإطلاق.. وهكذا، نجد أن ذكائهم يخونهم، في الوقت الذي تؤهلهم فيه معرفتهم لأن يكونوا أعقل وأحصف من غيرهم. لهذا أراه غير عاقل ذلك الذى يستخف بذكاء الغير دون أن يكون قد لمسه.. وقد تكونون جميعًا على غير رأيي، ومن ثم فسأروي لكم ما حدث لفارس «بيستويا»:

كان يعيش في مدينة «بيستويا» – منذ عهد غير بعيد– فارس يدعى «فرانشيسكو»، من أسرة «فيرجيليزي» وكان غنيًا، حكيمًا في كل الأمور، بيد أن جشعه كان يتجاوز كل حد. وإذ قدر له أن يُعين محافظًا لمدينة «ميلانو»، فقد تزود بكل ما يتطلبه هذا المنصب الكبير، فيما عدا الجواد الأصيل الذي يليق بمحافظ. وقد أعياه العثور على جواد يروق له ويرضيه.

وكان يعيش في المدينة ذاتها شاب يُدعى «ريكاردو» لم ينحدر من أسرة عريقة، ولكنه كان على جانب كبير من الثراء، وكان لفرط نظافته وأناقته وعنايته بمظهره، يسمى بـ «الجميل» وقد اشتد بهذا الشاب الإعجاب بزوجة «فرانشيسكو» –الفاتنة العفيفة– وإن لم يجده طول ملاحقته إياها.

وتصادف أن كان يمتلك جوادًا من أجمل جياد «توسكانيا» يعتز به،

ويقدر له ثمنًا باهظًا. ولما كان إعجابه بزوجة «فرانشيسكو» معروفًا للجميع، فقد أوحى إلى «فرانشيسكو» بأن الشاب خليق بأن يغتبط إذا هو طلب منه جواده ذاك، فيقدمه له هدية.. وزين له الطمع أن يطلب إلى «ريكاردو» أن يبيعه الجواد بالفعل، وهو يرجو أن يأخذه كمجرد هدية.

واغتبط الآخر بالفرصة أيما اغتباط، فقال لفرانشيسكو حين عرض عليه الأمر: «إن كل ما تملكه يا سيدي من متاع الدنيا لا يكفي ثمنًا للجواد، ولكنك تستطيع أن تحظى به بلا مقابل، إذا انت أذنت لي بأن أوجه بضع كلمات لزوجتك، على مشهد منك، ولكن على مبعدة من سمعك».

وتغلب على «فرانشيسكو» جشعه الغريزي، وحسب أن بوسعه أن يهزأ بالآخر، ومن ثم أجاب بأنه يرحب بتحقيق طلبه وقتما يشاء. ثم تركه، وصعد الدرج إلى زوجته لينبئها بالطريقة السهلة التي سينال بها جواد الرجل، وليسألها أن تصغي إلى ما لدى «الجميل» من حديث، على أن لا تجيبه بشيء، قل أو كثر.. ولامته السيدة على ذلك، ولكنها –كزوجة مطيعة– أذعنت لأمر زوجها، ونزلت معه إلى الردهة لتستمع إلى ما لدى الآخر. وقادها الشاب الى أقصى ركن في الغرفة، ثم راح يقول:

- لاشك عندي، يا سيدتي الغالية، في أنك تلمسين منذ أمد طويل أني عبد لسلطان جمالك الذى يبرز كثيرًا جمال كل من شاهدت من النساء.. هذا فضلاً عن خصالك ومواهبك التي تكفي لدحر أشد الرجال رزانة، وأقلهم انسياقًا للعواطف ، لذلك فلا حاجة بي لأن أفضي إليكِ بأن

حبي لك هو أحر حب يمكن أن يكنه رجل لامرأة، ومن ثم فسيظل حيًا ما ظلت الحياة تحرك أطرافي الواهنة.. بل إنه سيبقي خالدًا إلى الأبد، إذا ما قدر لنا أن نحب في العالم الآخر، كما نحب في هذا العالم. وثقي أن ليس بين مقتنياتك ما هو أحق بأن تمتلكيه أكثر مني ومن مالي.. وحتي أثبت لك هذا، سأعتبره فضلاً فريدًا في نوعه أن تأمريني بالقيام بأية خدمة في مقدوري أن أقوم بها.. إنني أناشدك.. أنت يا من تمتلكينني، وتتوقف على كلمة منك سلامتي وسعادتي.. أناشدك وأهيب بك – راجيًا بكل تواضع، وأنا الجريح الى السويداء من فرط جمالك– أن لا تدعيني أهلك.. ثم هبي أنني هلكت، وأن الناس ألقوا عليك تبعة موتي، فماذا يفيدك أن يكون ضميرك راضيًا؟!.. أما إذا كنت لا تتمالكين أن تقولي: «وآسفاه، لماذا لم أظهر شيئًا من العطف والإشفاق نحو «الجميل» المسكين؟»، فإن هذا الندم سيظل مصدرًا لقلق يقض هناءتك.. ففكري قبل أن يفوت الأوان،؛ لأن في وسعك أن تجعليني إما أسعد الناس، وإما أشقاهم على الأرض.. ومع ذلك فإني آمل أن لا يكون الهلاك جزاء الوجد المشبوب الذى أكنه لك، وإنما أطمع في كلمة واحدة تنطقين بها مواسية، فتقوّين بها روحي المتهاوية، التي توشك أن تفارقني. ها أنذا ماثل أمامك.. فقوليها».

وهنا اختتم حديثه والدموع تنهمر من عينيه، والآهات تتصعد من أعماق صدره، ثم جلس ينتظر جواب السيدة. أما هي – التي ظلت إلى ما قبل ذلك اليوم لا تتأثر بزفراته وآهاته، وأغنياته العاشقة، وغير ذلك من ألوان الغزل– فقد بدأ قلبها يرق لعباراته البالغة الحنان، وبدأت تحس – لأول مرة– بعاطفة غريبة لا عهد لها بها من قبل.. وعلى الرغم من

إخلادها للصمت إطاعة لأوامر زوجها، فإنها لم تقو على أن تتحاشي الإفضاء بزفراتها وتنهداتها، بما كانت تود أن تفصح عنه بالكلام.

وانتظر «الجميل» قليلا، حتى إذا لم تجب، تولاه العجب في أول الأمر، ثم ساوره الشك في أن هناك خدعة من زوجها؛ فأخذ يتفرس فيها جادًا، وإذا به يفطن إلى أنها كانت ترمقه من آن لآخر، وفي عينيها وميض. كما لمس بعض زفرات خفية تجاهد عبثًا في أن تكظمها وتخفيها. ومن ثم بدأ يتشجع، ولجأ على الفور الى خطة جديدة؛ هي أن يرد على نفسه بمثل ما كان يأمل أن تفعل لو أنها تكلمت بلسانها، فما لبث أن قال:

- يا سيدي العزيز.. لا شك في أنني أشهد منذ زمن بعيد حبك العظيم الذي تكنه لي بين جوانحك. ولقد زدتني الآن إيمانًا بحبك، بفضل كلماتك التي اقتنعت في الواقع بصحتها. فإذا كان قد بدا لك منى أني مستاءة، أو جافية، فلا تحسب أني كارهة. فأنا في الحقيقة قد أحببتك أكثر من أي انسان، ولكن ذلك التصرف كان أمرًا لابد منه؛ خوفًا من ألسنة الناس، وصونًا لسمعتي. ولقد آن الأوان لأجزيك على حبك. فليطمئن قلبك، ولتعلم أن زوجي سوف يرحل بعد أيام قلائل ليتولى منصبه الجديد في «ميلانو» وبما أنك أعطيته جوادك الأثير، فإنني أعدك وعدًا قاطعًا بأن أمنحك قلبي. وبأن أتوج معك حبنا بالسعادة الكاملة.. وخشية أن لا تتيح لي فرصة أخرى للتحدث إليك في هذا الموضوع قبل أن يحين ذلك الوقت، فإني أرجو أن تترقب في انتباه، حتى إذا رأيت منديلين يتدليان من نافذتي المطلة على الحديقة، فاتخذ الحيطة كي لا يراك أحد، ثم تعال إلي خلال الحديقة. وسأكون في انتظارك لنقضي الليل على أحب الوجوه.

قال هذا على لسان السيدة، ثم أردف مجيبا عن نفسه: «لقد انتشلتني يا سيدتي العزيزة من قنوطي، فلست أملك ما يوفيك حقك من الشكر. وحتى لو أنني كنت أملك ما يوفيك هذا الحق؛ لذا اتسعت الفرصة الآن لكى أوديه على الصورة التي أتمناها، والتي أترك لك تخيلها، لأنني أجدها تعز على الوصف.

ومع ذلك، فثقي من أنني سأواظب على ارتقاب الفرصة الموعودة، وسأطل مقدرًا جميلك. ولم يبق الآن – يا حبي الغالي– سوى أن استودعك الله».

ولم تنطق السيدة بكلمة واحدة –رغم كل ما قاله– فنهض «ريكاردو» ومضى إلى زوجها الذي خف لاستقباله مبتسمًا، وهو يقول: «والآن يا سيدي.. ترى هل وفيت لك بوعدي أم لا؟!».

فأجابه الشاب: «لا.. لم تف به على الإطلاق. فقد وعدتني بأن أتحدث إلى زوجتك، ولكنك جئتني بتمثال أحدثه».

فاغتبط الفارس. ولما كان حسن الظن بزوجته من قبل، فقد تضاعفت ثقته فيها عندما سمع هذه الكلمات، ثم قال: «أحسبك ستسمح لي الآن بالجواد؟».

فأجابه الشاب: «بكل تأكيد.. ولو كنت حسبت أن الصفقة لا يمكن أن تنتهي إلى أفضل من هذه النتيجة، لقدمته لك دون أي شرط.. ولكنك في الواقع قد أخذته.. دون أن تدفع الثمن».

فضحك الفارس من أعماق قلبه ، إذ فاز بالجواد، وسافر– بعد

أيام– إلى «ميلانو» ليتولى منصبه الجديد. وهكذا بدأت السيدة تنعم بحريتها، وأخذت تفكر في كلمات «الجميل» ونظراته. وكانت –كلما شاهدته مارًا بالقرب من منزلها– تقول في نفسها: «ماذا أنتظر؟ ولماذا أضيع وقتي هباءً؟.. إن زوجي في «ميلانو»، ولن يعود قبل ستة أشهر، فكيف يقوى على سداد ما يتراكم لي عنده –خلال غيابه– من عواطف متأخرة؟.. أعندما أهرم؟.. ثم متى يُقدر لي أن ألتقي بعاشق آخر كهذا العاشق؟.. لا أحد هنا أخشاه.. وحتى لو انكشف الأمر، فإن من الأفضل أن أقدم على المغامرة ثم أندم على أن لا أقدم ثم أندم، إذا ما فوّت على نفسي هذه الفرصة».

وإذ عولت على ذلك، علقت منديلين خارج النافذة كما أشار عليها «الجميل» من قبل.. ورآهما هو، فغمره الفرح، ومضى في نفس الليلة إلى باب الحديقة، فوجده مفتوحًا. وكذلك كان الباب المفضي إلى داخل المنزل، حيث وجد السيدة في انتظاره. وسرعان ما نهضت توسعه قبلات حارة، ثم قادته إلى الطابق العلوي حيث كان مخدعها.

كان ذلك أول لقاء بينهما، ولكنه لم يكن الأخير. لأنهما وجدا –طوال الفترة التي قضاها الزوج في «ميلانو»، بل وبعد عودته– الوسيلة للاجتماع معًا من حين لآخر في سعادة متبادلة.

عشيق زوجته

حان دور «نييفيله» للكلام، وكانت قد تُوّجت ملكة على عرش اليوم الثالث. وجاء دورها «التاسعة» في ترتيب المتكلمين في ذلك اليوم، فقالت: «إننى لا أشك في قدرتي على أن أبلغ مبلغ من سبقوني. ومع ذلك، فسأروي لكم قصه تلوح لي مناسبة لغايتنا وهدفنا:

كان «إيسنار» –كونت دى رسيون– من نبلاء فرنسا المعدودين، ولكنه مني بعلة أورثته سقمًا دائمًا، واضطرته إلى أن يتخذ لنفسه طبيبا خاصًا –يُدعى «جيرار دى فاربون»– أسكنه قصره. ولم يكن للكونت سوى ابن واحد، اسمه «برتران»، نشأ بين أقران له من سنه، بينهم ابنة للطبيب –اسمها «جيليت»– شغفت به شغفًا بالغًا يفوق ما هو مألوف في مثل عمرها.

ومات «الكونت» بعد أن عهد بابنه الى رعاية الملك، فاضطر «برتران» للنزوح إلى «باريس» ومن ثم اشتد بالفتاة الحزن. وما لبث أن مات أبوها – بدروه– فودت لو تطير إلى باريس لترى «معبودها»، لولا أن أعباء ما خلفه لها أبوها من ميراث قعدت بها عن تنفيذ غايتها. وكانت قد بلغت سن الزواج؛ فتقدم إليها شبان عديدون، يخطبون ودها، وما كان الأوصياء عليها ليترددوا في قبول أي من هؤلاء الشبان زوجًا لها لولا أنها رفضتهم جميعًا دون أن تبدي سببًا؛ إذ كان حبها الأول يشتد حرارة وتبريحًا يومًا بعد يوم وهي تسمع الأنباء التي كانت تتواتر عن الشاب.

وتناهى إلى «جيليت» أن ملك فرنسا أصيب بعلة في صدره نتيجة تورم لم يعالج حق علاجه. واشتدت بالملك العلة، دون أن يهتدى الى طبيب يشفيه، رغم كثرة من أقبلوا على علاجه. ومن ثم أخذ الداء يستفحل، حتى استولى اليأس على نفس الملك.

ورأت الفتاه في هذه الأنباء فرصة ملائمة لها؛ لا لزيارة باريس فحسب، وإنما داخلها الأمل في أن تكون علة الملك وسيلة تمكنها من الفوز ببرتران زوجًا. فقد ذكرت أن أباها عالج في حياته مثل هذا الداء بأدوية لم تغب عن ذاكرتها، فأسرعت تمزج بعض عقاقير معينة، ثم شدت الرحال إلى «باريس». وكان أول ما فعلته أن سعت لرؤية «برتران»، ثم سألته أن يتوسط لها كي تحظى برؤية الملك، والتعرف على مرضه. فلما تكرم الملك بالسماح لها، تأكدت أن داءه هو عين ما حدست وأعربت عن رغبتها في علاجه، قائلة: «آمل يا مولاي أن أرد إليك صحتك في ثمانية أيام –إذا سمحت لي– دون أن أكبدك ألمًا أو عناءً»، ولم يتمالك الملك أن سخر من قولها قائلا: «أترين أن في وسع امرأة أن تفعل ما أعيا خيرة أطباء الدنيا؟».. وشكرها قائلًا إنه قد صمم على أن لا يجرب أية أدوية أو عقاقير أخري. فأجابت الفتاة: «لعلك تستخف ببراعتي يا مولاي لأنني امرأة، ولأنني صغيرة السن. ولكنى لا أزعم أن الشفاء يقوم على معرفتي، وإنما أعتمد على مساعدة الله، وعلى حكمة الطبيب جيرار ديناربون، الذي كان من أشهر أطباء عصره، والذي كان.. أبي». فقال الملك في نفسه: «لعل الله أرسلها إليّ لتعينني، فلماذا لا أجربها ما دامت تؤكد أنها قادرة على أن تبرئني دونما ألم في مثل هذا الأمد الوجيز؟».

ثم تحول إليها قائلا: «ولكن، هبي أنكِ على خطأ في زعمك، فما الذي تقدمينه لقاء تحولي عما كنت اعتزمت من انصراف عن العلاج؟».. فقالت: «إذا شئت يا مولاي أقمت حارسًا عليّ، فإذا لم تشف خلال ثمانية أيام، فاحرقني حية.. أما إذا قدر لك الشفاء، فأي جزاء تثيبني به؟».. فأجاب الملك: «يلوح لي أنكِ عذراء، لذلك فسوف أزوجك من رجل عظيم الشأن».

وهنا قالت الفتاه: «إنني أقبل يا مولاي ما تعد به من تزويجي، على أن أختار الزوج الذي يروق لي، ولا أستثني من نطاق اختياري أفراد أسرتك المالكة». ولم يتردد الملك في أن يعدها بذلك، فشرعت تمارس العلاج. وإن هي إلا أيام، حتى كان الملك قد حظى بالشفاء التام، فقال لها: «لقد استحققت الزوج الذي تبغين عن جدارة أيتها الطبيبة الماهرة». فأجابت: «إذن، فقد استحققت يا مولاي «الكونت دي روسيون»، الذي أحببته مذ كنت صبية».. ورأى الملك انها قد غالت في طلبها، ولكنه كان قد وعدها، وقال له: «لقد بلغت من السن يا برتران ما يؤهلك لأن تتولى حكم مقاطعتك، ومن ثم أرى أن تعود إلى هناك مصطحبًا الزوجة التي أختارها لك».

وقال برتران متسائلاً: «ومن تكون هذه السيدة يا مولاي؟».. فأجاب الملك: «إنها تلك التي شفيت بفضل دوائها».. وكان برتران يعرفها حق المعرفة، ويميل إليها، ولكنه كان يرى أن نسبها أقل شأنًا من نسبة بكثير؛ لذلك قال في شيء من الامتعاض: «إذن فجلالتكم ترون أن تكون زوجتي طبيبة؟.. حاشا لله».. فأجاب الملك مشفقًا: «أتحب إذن أن أبدو

بمظهر العاجز عن الوفاء بوعده؟.. لقد طلبتك هي زوجًا، وكنت قد وعدتها بأن أزوجها ممن تختار هي إذا تمكنت من شفائي». فقال برتران: «لك يا مولاى أن تأخذ ما أملك، أو أن تضيف إليه إن شئت.. أما هذا الزواج، فأؤكد لجلالتكم أننى لن أرتضيه».. ولكن الملك مضى يزينه له قائلا: «لسوف يسرني أن ترضى به، لاسيما والفتاة شابة عاقلة، وجميلة، وقد تنال معها من السعادة فوق ما يُمكن أن تنالك لو أنك تزوجت من سيدة نبيلة النسب».

ولم يجد «برتران» خيرا في إغضاب الملك؛ فراض نفسه على تقبل الواقع. وسرعان ما أمر الملك بإقامة حفلة فخمة لإعلان الخطبة. حتى إذا حان يوم عقد القران، أقدم عليه «برتران» وهو كاره.. وحضر الملك الحفل، فلما انتهت الإجراءات، استأذنه برتران في الرحيل إلى مقاطعته، وكأنه اعتزم أن يكون الزفاف في مسقط رأسه. على أنه لم يذهب إلى هناك، وإنما اتجه وجهة أخرى أفضت به إلى «توسكانى»، حيث سمع عن قيام حرب بين أهل «فلورنسا»، وأهل «سيينا»، فانضم إلى صفوف الأولين، وأصبح ضابطًا في جيشهم لفترة من الزمن.

ومع أن العروس لم ترض عن مسلكه هذا، إلا إنها رحلت إلى «روسيون»، طامعة في أن تظفر بحبه إذا ما أبدت حكمة ومهارة في إدارة أملاكه، فاستقبلها أهل المقاطعة، وارتضوها سيدة لهم. ووجدت الاضطراب والاختلال يسودان كل شيء لطول غياب زوجها عن أملاكه؛ فعمدت إلى إصلاح الأمور بحذق وعناية، ووفقت في اكتساب حب القوم، حتى إنهم بدأوا يرون في إهمال الكونت إياها أمرًا معيبًا يستحق اللوم. وإذ

ذاك، أوفدت «جيليت» إلى الكونت فارسين من نبلاء المقاطعة يسألونه عما إذا كان بقاؤه بعيدًا راجعًا الى زواجه منها، ويؤكد له استعدادها لأن ترحل الى أي مكان يشاء إرضاءً له. ولكنه استقبلهما في جفاء، وقال لزوجته أن تصنع ما يحلو لها.. «لأني لن أعود الى مسقط رأسي إلا إذا كان هذا الخاتم حول أصبعها، وكان في أحضانها ولد مني».. وأشار الى خاتم حول أصبعه هو كان يعتز به ولا يخلعه قط. ومن ثم أدرك الفارسان أنه يطلب المستحيل بشرطيه هذين. حتى إذا عجزا عن أن يزحزحاه عن رأيه عادا الى السيدة، وأفضيا بجوابه.

واهتمت السيدة بالأمر، وأخذت تدرسه من كل نواحيه لتبحث عن سبيل إلى تحقيق الشرطين، والفوز بزوجها. ولم تلبث أن جمعت سادة المقاطعة، وروت لهم في لهجه رقيقة، مؤثرة، كل ما فعلته كي تكسب حب الكونت، وما كان من رده. وقالت إنها تأبى أن يظل بعيدًا عن مقاطعته وبلاده من أجلها، ومن ثم فقد قررت أن تقضي ما بقي من عمرها في الحج إلى الأراضي المقدسة، وفي أعمال البر. ثم أسلمتهم مقاليد مقاطعتهم، وعهدت إليهم بأن يعلنوا الكونت برحيلها وعزمها على أن لا تعود.. وأخذها التأثر وهي تقول هذا، فبكت.. وألح القوم عليها في أن تعدل عن قرارها، ولكنها أبت أن تتزحزح عنه.. وانطلقت الى الحج، غير مصطحبه سوى وصيفة وأحد الأقارب، بعد أن تزودت بقدرٍ كافٍ من المال والحلي والمجوهرات. ولم يتوقف الركب إلا حين بلغوا «فلورنسا»، وهناك قادتهم المصادفة إلى فندق تمتلكه أرملة، فنزلت به السيدة ريثما تتنسم أخبار زوجها.

وتصادف أن مر الكونت أمام الفندق –في اليوم التالي– على رأس فصيلة من جنوده، وقد امتطى صهوة جواد فتظاهرت بأنها لم تعرفه، وسألت عنه صاحبة النزل، فأجابتها: «إنه سيد أجنبي – يدعى الكونت روسيون– من أطيب الناس في الدنيا، ومن أكثر من في هذه المدينة حظوة بالاحترام.. وهو مدله في هوى سيدة على شيء قليل من الثراء. ومع إنها مليحة، إلا أنها لم تتزوج بعد، وتعيش مع أمها العجوز التقية.. ولولا هذه السيدة الحكيمة، لكانت الفتاة قد رضخت للكونت منذ زمن».. وما إن سمعت «جيليت» هذا، حتى ازدادت اهتمامًا بدراسة موقفها، وتدبير خطتها. واستفسرت عن اسم الفتاة، وعن مسكنها، ثم ذهبت إليها ذات يوم، وخلت إلى أمها العجوز في غرفة بالدار، وقالت: «يبدو لي يا سيدتي أن الحظ لم يكن معك أكرم منه معي. على أن بوسعك الآن أن تؤدي معروفًا لنفسك ولي.. إنني أضع حياتي بين يديك، فإذا غدرت بي فسوف تسيئين إلى نفسك كما تسيئين إلي».

وقالت السيدة: «أفضي بما لديك، وستجدينني أمينة مخلصة».. وهنا روت «جيليت» كل قصتها – من البداية إلى النهاية– ثم قالت: «الآن عرفت سر الشيئين اللذين لا سبيل إلى استرداد زوجي بغيرهما.. ليس في الدنيا من يستطيع أن يساعدني سواك، إذا صح ما سمعته من أن زوجي متيم بابنتك».. فأجابت السيدة: «هناك بعض دلائل توحي بميل الكونت إلى ابنتي يا سيدتي، ولكنى لا أستطيع أن اجزم بقيام علاقة بينهما. ومع ذلك فما شأن هذا بقصتك؟».. فقالت جيليت: «هذا ما سوف أحدثك عنه في الحال، ولكنني أحب أن تسمعي أولاً ما أعتزم أن أقدمه لقاء

عونك. لقد عرفت أن لك ابنة في سن الزواج، وإنكِ لا تملكين أن تزوجيها لافتقارها إلىالمال ، وإني أعدك بأن أقدم لك من المال ما ترينه كافيًا لتمكينها من أن تحظى بزيجة مشرفة».. وارتاحت السيدة العجوز إلى هذا الاقتراح، ولكنها –ككل سيدة تقية– أجابت: «صارحيني أولاً بما تريدين مني، فإذا كان شريفًا لا غبار عليه فعلته عن طيب خاطر، وتركت لك أمر مكافأتي عنه».

عند ذاك قالت «الكونتة»: عليك أن توحي إلى الكونت –عن طريق شخص تثقين به وتأتمنيه– بأن ابنتك على استعداد لأن تنساق لهواه بمجرد أن يثبت لها صدق هذا الهوى.. وأن لا سبيل الى ذلك، إلا بأن يرسل لها الخاتم الذي لا يفارق أصبعه عادة، والذي يعتز به كل الاعتزاز. فإذا أرسل لك هذا الخاتم فاسلمينيه، ثم انبئيه بأن ابنتك في خدمته، وأن في وسعه أن يخلو بها متى يشاء. فإذا جاء، فادعيني له في فراشها بدلاً منها.. ولعلني بعد ذلك أحمل منه، فقد يتاح لي إذا ما كان الخاتم حول أصبعي، وابنه بين ذراعي –كما اشترط– أن أعيش معه كما تعيش كل زوجة مع زوجها.. ولعلك تكونين رسول السعادة بيننا إذ ذاك».

وساور الشك السيدة في البداية، خشية أن تحيق بابنتها فضيحة ما، ولكنها لم تلبث – بعد أن تروت في الأمر– أن وعدت «الكونتة» الشابة بأن تساعدها. ولم تنقض بضعة أيام، حتى جاءتها بالخاتم الذي تخلى عنه الكونت وهو كاره. ثم جاءت ليلة دعت فيها «جيليت» إلى أن تحتل سرير ابنتها. وشاءت السماء أن تحمل «جيليت» ، كما ظهر حين آن لها أن تضع حملها.. على أن هذه الخلوات تكررت، وكان الكونت يعتقد –في كل

مرة– أنه ينام مع الحسناء ابنة صاحبة الدار، ومن ثم أخذ يغرق العجوز بالهدايا والحلي.

وإذ وجدت «جيليت» أنها حامل، أشفقت من أن تكبد السيدة العجوز مزيدًا من العناء، فقالت لها: «لقد بلغت غايتي يا سيدتي، ولم يعد لي هم سوى أن أرضيك». فقالت السيدة: «يكفيني أن تكوني أنت راضية، فما طمعت من وراء خدمتك في جزاء، وإنما بدا لي أنني أصنع خيرًا إذ أعاونك». ولكن «الكونتة» عادت تلح عليها قائلة: «إنني جد مغتبطة بما وصلت إليه من نتائج يا سيدتي، وإني لأصر على أن أقدم لك مكافأة تُعادل صنيعك معي».. وإذ ذاك طلبت السيدة مائة جنيه، تخصصها لابنتها. ولكن «الكونتة» لم تأخذ بهذا التواضع، فمنحتها خمسمائة جنية، وجواهر تعادل قيمتها هذا المبلغ. وإذ أدركت السيدة أن «الكونتة» لن تعود إليها مرة أخرى، حملت المبلغ, والمجوهرات, وما كان لديها من متاع ورحلت مع ابنتها إلى الريف بعيدًا عن أنظار الكونت.

وبعد زمن ما، عرف «برتران» أن زوجته رحلت عن المقاطعة، فعاد إليها نزولًا على إلحاح أهل المقاطعة. أما «الكونتة فقد ظلت في «فلورنسا» حتى استوفى الحمل مدته، ثم وضعت توأمين شديدي الشبة بأبيهما. وما لبثت أن نزحت إلى «مونبلييه» في صمت وتكتم، حيث مكثت فترة لتستجم ولتتقصى أنباء زوجها. وإذ علمت أنه سيقيم وليمة كبيرة في «روسيون» يوم عيد القديسين، سعت إلى هناك في نفس الثياب التي كانت ترتديها يوم خرجت للحج. وعندما سار الضيوف إلى قاعة المائدة، شقت لنفسها طريقًا وسط الجمع، من سادة وسيدات، وقد حملت

طفليها بين ذراعيها، حتى إذا بلغت مكان الكونت، ألقت بنفسها عند قدميه، قائلة ودموعها تنساب مدرارة: «كيف تسنى هذا؟». وإذ ذاك روت قصتها أمام الجمع، فتبين من حديثها أنها كانت صادقة، وفَطِنَ إلى ذكائها، وحسن تصرفها، وسعة حيلتها.

فقالت له: "زوجتك التي قامت بحج طويل لتمكنك من أن تعود إلى موطنك ودارك.. إنني استحلفك بالله أن تفي بوعدك بعد أن وفيت أنا بشرطيك اللذين أعلنتني بهما على لساني الفارسين، فبدلًا من أن آتيك بابن، جئتك باثنين.. ثم هاك خاتمك.. لقد آن لك أن تتقبلني زوجة».

وألجمت الدهشة لسان الكونت حين رأى الخاتم، وتبين الشبه وما فعلته لكي ترضيه وتفوز به زوجًا. وإزاء تقيده بوعده, وبتأثير عبارات الرجاء التي انبعثت من الجمع، مسح عن قلبه ما كان قد أصابه من غل وغضب، فأمسك بيد زوجته ينهضها، وحياها مُرحبًا بها بوصفها زوجته وشريكة حياته، معترفًا ببنوة الطفلين.

وساد الفرح قصره ومقاطعته، ولم تقتصر المأدبة على ذلك اليوم، بل ظلت الاحتفالات أيامًا عديدة. وحرص الكونت منذ ذلك الحين على أن يبدي لجيليت كل احترام وتبجيل. وعاش الاثنان في سعادة وهناءة.

اليوم الرابع

قلب الحبيب.. في كأس من ذهب

اختير « فيلوستراتو» ملكًا لليوم الرابع، فرأى أن يحصر موضوع قصص ذلك اليوم في نطاق المآسي الغرامية. وقدر لفياميتا أن تكون صاحبة القصة الأولى، فشرعت تقول:

ما أبغض الموضوع الذي اختاره ملكنا لحديث اليوم؛ إذ كيف يتسنى لنا –نحن الذين اجتمعنا للترفيه عن أنفسنا– أن نتحول إلى الحديث عن دموع الغير، الأمر الذي لا نملك إزاءه سواء الرواة منا أو المنصتون، إلا أن نتألم إشفاقًا. ولعله ما فرض هذا إلا ليخفف من غبطة الأيام الثلاثة الماضية بعض الشيء, ولكن مهما يكن غرضه، فلا مفر من أن تكون إرادته قانونًا لا سبيل للخروج عنه، ومن ثم فسأروي لكم قصة تُثير الأسى، لا، بل تُثير أشد الحزن. وعلى هذا، لكم أن تبكوا من أجلها كيفما شئتم:

كان «تانكريدي» – ملك «ساليرنو»– رجلًا نبيلًا، ساميًا في كرمه ومشاعره الإنسانية، وإن كان قد لوث يديه –في شيخوخته– بدماء عاشق من العشاق. ذلك إن هذا العاهل لم يُرزق في حياته الطويلة بغير ابنة واحدة، كان خليقًا بأن يظل ناعم البال لو أنه لم ينجبها!.. مع أنه لم يُقدر لطفلة أن تلقى من والدها مثل ما لقيته هذه الفتاة من إعزاز، حتى لقد كره الملك أن يفرق بينه وبينها شيء ما.. حتى لو كان هذا الشيء هو الزواج..

ومن ثم استبقاها إلى ما بعد سن الزواج بسنوات عديدة، ثم زفها في النهاية إلى ابن الدوق «كابوا»، لم تعش معه سوى فترة وجيزة، ثم مات، فعادت إلى أبيها ثانية.

وكانت الأميرة على قدر من الجمال والذكاء يفوق كثيرًا ما لبنات جنسها، فما عادت إلى كنف أبيها المشوق إلى العيش معها دائمًا، لاحظت أنه لا يعني بأن يزوجها مرة أخرى. ورأت أن الخفر والحياء – اللذين فطرت عليهما– يحولان دون أن تسأله ذلك، فعولت في النهاية على أن تتخذ لها عشيقًا في السر، إذا هي استطاعت أن تهتدي إلى شخص جدير بذلك. وسرعان ما وقع اختيارها على شاب من الحاشية يُدعى «جسكاردو»، من أسرة وضيعة، ولكنه أوتي صفات نبيلة، فأغرمت به غرامًا مشبوبًا، وراحت تكثر من لقائه، وتطري مناقبه وأخلاقه، حتى فطن إلى هواها، فكرس حياته لخدمتها. واشتد بكل منهما الوجد –دون أن يبوح به– حتى لم يعد لهما من أمنية سوى أن يجتمعا معًا.

ولما كانت الفتاة لا تجرؤ على أن تأتمن إنسانًا على سرها، فقد دبرت حيلة جديدة كي تطلع الشاب على الوسيلة التي تُيسر لهما اللقاء.. وعلى هذا كتبت له رسالة بما ينبغي أن يفعله في اليوم التالي، ثم دستها في عصا مجوفة قدمتها إليه وهي تقول متبسطة: «تستطيع أن تتخذ من هذه منفاخًا يذكي به خادمك النار في هذا المساء».

وتقبل منها العصا، وقد أيقن أن لقولها معنى خاصًا، فلما بلغ مسكنه، تبين أن العصا مجوفة، وعثر بداخلها على الرسالة، فأمعن في تدبر

كل عبارة حوتها، حتى إذا استوعب ما ينبغي أن يفعله، استخفه الفرح، وشرع يعُد نفسه ليُلبي إرادتها بالطريقة التي أرشدته إليها.

وكان ثمة كهف تحت جبل يقوم إلى جانب من القصر، وقد حفر في عهد لا تلم به الذاكرة في جوف الصخر الصوان، ثم طال العهد به وهو مهمل، مهجور؛ فلم يعد ينفذ إليه الضوء إلا من خلال ثغرة صغيرة نمت حولها الأعشاب الفطرية, والنباتات الشوكية حتى غطتها. وكان ثمة سرداب يفضي إلى هذا الكهف بسلم خاص أقيم في ركن في غرفة الأميرة في فجوة أغلقت بباب متين، منيع. وكان هذا السرداب أبعد من أن يخطر ببال إنسان لطول عدم استخدامه، حتى إن أحدًا لم يكن يتذكر عنه شيئًا، وإن كان الحب – الذي لا يفوته شيء– قد ابتعثه من جديد في رأس العاشقة التي جهدت أيامًا في سبيل فتح الباب المنيع، لكي تبقى غرامها في طوايا الكتمان. فلما نفذت إلى السلم، وهبطت إلى الكهف، تبينت تلك الثغرة، وسبرت ارتفاعها عن القاع، ومن ثم أنبأت محبوبها بالأمر.

وما لبث «جسكاردو» أن تزود بسلم من الحبال ولف نفسه جيدًا بلباس من الجلد يحميه من الأشواك، ثم ثبت أحد طرفي السلم حول جذع شجرة قريبة، وانزلق إلى الداخل مستعينًا بهذا السلم في الهبوط إلى القاع، حيث أخذ ينتظر محبوبته. أما هي، فقد أقصت وصيفاتها في اليوم التالي بدعوى أنها ستأوي إلى فراشها عقب العشاء مباشرة، ثم أغلقت على نفسها باب مخدعها لتبادر من فورها إلى الكهف، حيث التقى العاشقان وتحققت أمنيتهما المتبادلة. ومن ثم دلت الفتاة عشيقها على الطريق إلى مخدعها، حيث قضيا معًا الشطر الأكبر من الليل.

وبعد أن اتخذا التدابير اللازمة للمستقبل، انصرف الشاب خلال الكهف، وتكرر الشيء ذاته في الليلة التالية.

وسار الأمر على هذا المنوال ردحًا من الزمان، إلى أن رأى القدر — وكأنما نفس عليهما سعادتهما الغامرة— أن قد آن له أن يبدل أفراحهما حزنًا واتراحًا.. فقد كان من عادة الملك «تانكريدي» أن يدلف إلى مخدع ابنته وحيدًا في بعض الأحيان، فيقضي معها شطرًا من الوقت. وفي ذات يوم، حضر الملك —بعد العشاء— فإذا الأميرة في الحديقة مع وصيفاتها. فلما اطمأن إلى أن أحدًا لم يره، وأشفق من أن ينتزع الأميرة —وكان اسمها «جسموندا»— من لهوها في الحديقة، آثر أن ينتظرها. وكانت النوافذ مغلقة، والستائر مسدلة حتى نهاية الفراش، فغاص في مقعد كبير في ركن من الحجرة، وأسند رأسه إلى حافة السرير، وجذب الستار أمامه، وكأنه يتوارى ليفاجئ ابنته.. ولكن المصادفة ساقت النعاس إلى جفنيه.

وفي تلك الأثناء، تركت «جسموندا» وصيفاتها في الحديقة عائدة للقاء عشيقها في الموعد المضروب في الكهف، ودخلت غرفتها — دون أن تفطن إلى وجود أحد فيها— ثم مضت إلى «جسكاردو» الذي كان ينتظرها في الكهف، لتعود به إلى مخدعها. واستيقظ والدها ليكون شاهدًا على لقائهما الغرامي، فكان ذلك شر ما ابتلي به، حتى هم بأن يصرخ ويقيم الدنيا ويقعدها، ولكنه تمالك نفسه، وقلب وجوه التفكير، ثم عول على أن يبقي الأمر سرًا ما استطاع، ليتمكن من تنفيذ ما قرره بطريقة أسلم وأقل مجلبة للخزي والعار.. وقضى العاشقان معًا زمنهما المُعتاد، دون أن يفطنا إلى وجود « تانكريدي» الذي وثب من النافذة إلى الحديقة — رغم

شيخوخته– بمجرد افتراقهما، ثم مضى إلى مخدعه دون أن يلمحه أحد، وقد اشتد به الحزن والأسى.

وبأمر من الملك، قبض رجلان في الليلة التالية على «جسكاردو» وهو يبرح الكهف، فحملاه في إزاره الجلدي إلى مولاهما، الذي بادره –إذ رآه– قائلًا وقد فاض الدمع من عينيه: «ما أسوأ ما جازيتني به يا «جسكاردو»؛ إذ قابلت ما أسبغت عليك من عطف، بأن انتهكت حرمتي، وألحقت بي العار، على النحو الذي شهدته بعيني».. ولم يجب الشاب بغير قوله: «إن للحب يا مولاي سلطانًا أقوى منك ومني». وإذ ذاك، أمر «تانكريدي» بحبسه وإقامة حراسة شديدة عليه.

وفي اليوم التالي، مضى الملك إلى حجرة ابنته كعادته –ولم تكن قد ألمت بشيء مما حدث– فأغلق الباب ليخلو إليها، ثم قال باكيًا: «لقد كان لي يا ابنتي في خفرك وعفتك رأي يحول دون أن أصدق يومًا أنك تجرؤين على انتهاكهما بمجرد الفكر، فما بالك بالجسد, حتى رأيتك بعيني رأسي تهبين نفسك لرجل غريب. إن مجرد التفكير في هذا سيجعل من البقية الباقية من حياتي حزنًا قاسيًا مُقيمًا. ليتك –عندما عولت على هذا العمل– قد اخترت شخصًا يليق بمقامك.. أما هذا الـ «جسكاردو»، فهو من أحقر رجال حاشيتي.. لقد أورثني تصرفك من الهم ما لا أكاد أعرف معه ما ينبغي أن أفعل, إنني –فيما يتعلق بالرجل– قد أمرت باعتقاله في الليلة الماضية، وقد طرح في السجن، واستقر رأيي على القضاء عليه. أما بالنسبة لكِ، فأراني موزعًا بين أمرين متباينين: أحدهما يتمشى مع أرحم عاطفة يحملها أب لابنته، والثاني يتفق مع أعدل قصاص يستوجبه طيشك

الأرعن. أحدهما يترافع مرافعة بليغة لمصلحتك، والثاني يحفزني على تصرف يتنافى مع طبيعتي. على أنني أود –قبل أن أبت في الأمر– أن أسمع ما لديك من إيضاح». وما إن قال هذا، حتى نكس رأسه، وراح ينشج بالبكاء كطفل ألهبته السياط.

واعترى الأميرة –إذ سمعت هذا– هم يفوق كل ما يخطر بالخيال, فقد أدركت أن غرامها لم يفتضح فحسب، وإنما كان عشيقها ملقى في غياهب السجن أيضًا. وهمت بأن تولول في أسى، كما هو شأن النساء إذا ألمت بهن كارثة.. بيد أنها تغلبت على ذلك الضعف، وتبدى عليها العزم؛ إذ حسبت أن «جسكاردو» قد لاقى حتفه، فقررت –في نفسها– أن لا تكون لها من بعده حياة. وقالت بكل ما يُمكن تصوره من رباطة جأش: «ليس في نيتي يا مولاي أن أنكر ما فعلت، أو أن ألتمس منك فضلًا؛ ذلك لأنه إذا كان الإنكار ما يجديني شيئًا، فإني أرى أن التوسل لن يكون عظيم النفع لي.. ومن ثم فلن أستغل حبك وحنانك، ولكني سأحاول –بالاعتراف الصريح– أن أبرر مسلكي، ثم أفعل ما توحيه إليّ كرامة نفسي. الحق، كل الحق، أنني أحببت «جسكاردو»، وما زلت أحبه، وسأظل مقيمة على حبه ما حييت، وإن كان أمد حياتي لن يطول, وإذا صح أن الحب يدوم إلى ما بعد الموت، فلن يقضي الموت على حبي، لأنه لم يكن مُنبعثًا عن ضعف الأنوثة، بقدر ما كان نابعًا من تقديري لذلك الشاب، ومن قلة اهتمامك بأن تزوجني مرة أخرى. وجدير بك يا أبي أن تعرف أن ابنتك مثلك، من لحم ودم، وليست جمادًا من حجر, ولابُد أنك تذكر –حتى في هذه السن– ما لعواطف الشباب من قوة، وفي وسعك أن تحدس، وإن لم

تهمل رياضتك كجندي، ما للترف والدعة من أثر.. ومن ثم فلست أكثر آدمية. ولما كنت لا أزال شابة، فإنني لم أتحرر بعد من شهوات الجسد. وقد تعلمت –في حياة زوجي– أن استمرئ هذه الملذات، حتى غدت ضرورة لازمة بالنسبة لي.

وحرصت دائمًا –في إرضاء شهواتي– على أن أتفادى كل ما يجلب اللوم لي ولك. وقد ابتسم لي الحظ، فهداني إلى سرداب ينيلني ما أشتهى, وبهذا ترى أني لا أنكر شيئًا، بل إنني أحب أن أقول – مهما يكن ما رأيت أو ما سمعت– أنني ما اخترت «جسكاردو» إلا بعد روية وتفكير، وليس بمجرد المصادفة، أو بوحي النزوة كما تفعل غيري من النساء.

«ولعلني مُنساقة لفكرة خاطئة لا تمت إلى الحقيقة في شيء؛ إذ يلوح لي أنك كنت خليقًا بأن تلتمس لي العذر لو أن عشيقي كان من السادة، وأنك لا تنقم على غلطتي، وإنما تُثيرك غلطة القدر الذي كثيرًا ما يرفع أقل الناس جدارة بالسمو، ويغفل من هم أولى به وأحق. إننا جميعًا مخلوقون من مواد واحدة، وقد صاغتنا يد واحدة, والفضيلة هي أول ما فرق بين البشر، فجعلت النبل من حق ذوي الفضيلة دون الآخرين؛ وإذا كان هذا القانون قد توارى بفعل عادة مناقضة له، إلا أن الطبيعة والخلق لم يتنكرا له أو ينبذاه.

فإذا تأملت بطانتك في ضوء الفضيلة والقيم الخلقية وحدها، ووزنت ما لجسكاردو منها؛ لوجدته النبيل الوحيد بين أفراد الحاشية, في حين أن الآخرين ليسوا سوى طغمة من الأدنياء. وعلى ضوء خصاله وشجاعته

أسألك: من ذا الذي قدر —ذات يوم— إنسانًا لفضائله المحمودة، كما قدرت أنت جسكاردو؟ ولقد كنت —في رأيي— عادلًا، مُحقًا.. فإذا كنت مخدوعة، فإنما انسقت للخداع متأثرة برأيك أنت, وإذا قلت لي بعد ذلك إنني ارتبطت بشخص وضيع، نكرة، فإنني أنكر هذا. أما إذا قلت إنه فقير، فإنه لمما يشينك أن تكون قد تركت مثل هذه الجدارة بغير جزاء. وعلى كل حال، فإن الفقر قد يجردنا من المال، ولكنه لا يستطيع أن يجردنا من الشرف.

أما عن الحيرة التي تُساورك؛ وأعني حيرتك في معاملتي.. فافعل ما يروق لك. ولو أنك جنحت إلى عمل من أعمال القسوة، فلن أقول شيئًا يحولك عن مثل هذا القرار. على أنني أنبهك إلى أنك إذا لم تفعل بي ما فعلت —أو ما تعتزم أن تفعله— بجسكاردو، فسوف أتولى ذلك بيدي, فدع الدموع إذن للنساء، ولو كنت ترمي إلى القسوة، فقطع جسدينا معًا إذا رأيت أننا نستحق هذا».

وكان الملك يدرك قوة عزمها، ولكنه لم يستطع أن يصدق أنها اعتزمت تنفيذ وعيدها بالفعل، فغادرها وقد أضمر أن يترفق بها، وأن يفطم حبها —في الوقت ذاته— بأن يقضي على عشيقها. ومن ثم أمر الحارسين اللذين أقامهما عليه بأن يخنقاه سرًا في جنح الظلام، ثم ينتزعا قلبه من صدره ويأتياه به؛ وإذ صدع الحارسان بما أمرهما به، طلب الملك في اليوم التالي كأسًا ذهبية وضع فيها القلب، ثم أرسله مع خادم أمين إلى ابنته، وكلفه أن يبلغها هذه الرسالة: «إن أباك يبعث إليك بهذه الهدية ليثلج صدرك بما كان أعز شيء لديك، كما أثلجت صدره بما كان أعز شيء

لديه».

وكانت الأميرة قد فارقت أباها دون أن تتزحزح عن عزمها، ومن ثم اعتصرت بعض النباتات السامة، ومزجتها بالماء تأهبًا لحدوث ما كانت تخشاه. فلما أسلمها الخادم هدية الملك، وأدى الرسالة وفقًا لأمره، تناولت الكأس بعزم ثابت، حتى إذا رأت القلب فيها، وأدركت من كلمات أبيها أنه قلب «جسكاردو»، رمقت الخادم في جلد، وقالت: «لقد تصرف أبي بحكمة بالغة؛ إذ لا يستحق هذا القلب أقل من لحدٍ من ذهب».. ورفعت الكأس إلى فمها فقبلتها، ثم قالت: «لقد حظيت من أبي طيلة حياتي – حتى في هذه الفترة الأخيرة– بأوفر الحب.. ولكني أرى حبه اليوم أكثر وفرة من ذي قبل، فارفع إليه باسمي آخر آيات الشكر التي أملك أن أقدمها لقاء هدية كهذه».

وتأملت القلب في الكأس التي كانت تمسكها بيد ثابتة، وقالت: «واحسرتاه، يا أعز هدف، ويا مناط آمالي.. تبًا لقسوة ذاك الذي جعل عيني تتأملانك الآن، وأنت الذي طالما شاهدتك وعرفتك بعيني روحي.. لقد انتهى مطافك على الوجه الذي رآه القدر لائقًا بك.. لقد وصلت إلى الغاية التي نسعى إليها جميعًا، فخلفت تعاسات هذه الدنيا وراءك، وظفرت من عدوك اللدود باللحد الذي تستحقه، ولم يبق ما تستكمل به مأتمك سوى دموع من كنت تعزها في حياتك كل الإعزاز. لقد ألهمت السماء أبي –العديم الرحمة– أن يرسلك إليّ.. فهاك دموعي، بعد أن كنت اعتزم الموت غير متأثرة، ولا باكية.. ولن ألبث –إذا ما نضب دمعي– أن ألحق روحي بروحك؛ فليس من ملاذ آوى إليه أفضل وآمن من تلك العوالم

المجهولة.. وما أرتاب في أن روحك لا تزال تحوم على مقربة من مسرح مباهجنا، في ارتقاب روحي».

ولما انتهت من حديثها، راحت تذرف فيضًا من الدموع، وتقبل قلب حبيبها ألف مرة، والوصيفات المحيطات بها لا يعلمن أي قلب هذا، ولا إلى من كانت توجه كلماتها؟! غير أن رثاءها أذاب قلوبهن، فالتففن حولها باكيات، متوسلات أن تطلعهن على سبب حزنها، باذلات قصارى وسعهن للترفيه عنها.

وبعد أن بكت الأميرة ما شاء لها البكاء، رفعت رأسها ومسحت عينيها ثم قالت: «أيها القلب الذي أحببته كل الحب.. لقد أديت واجبي كاملًا نحوك، ولم يبق سوى أن تُرافق روحي روحك».. ثم أمرت بإحضار الإناء الذي كانت قد أعدته في اليوم السابق، فسكبت ما به في الكأس التي حوت القلب الذي غسلته بدموعها، ثم شربت المزيج حتى آخر قطرة، وألقت بنفسها على الفراش وهي ما زالت تمسك بالكأس, واسترخت ما وسعها الاسترخاء وهي تضم إليها قلب عشيقها الراحل. فلما شاهدت الوصيفات ذلك –دون أن يعرفن ما شربت– أبلغن «تانكريدي» الذي حدس ما وقع، فهرع إلى حيث رقدت ابنته؛ ليجد أنه قد وصل بعد فوات الأوان، فراح يبكي بكاءً مرًا. وإذ ذاك قالت له ابنته: «وفر الدموع يا مولاي لمأساة أسوأ من هذه، فإنني في غنى عنها.. ثم من غيرك يحزن على شيء فعلته يداك؟ وإذا كانت قد بقيت لي في قلبك بقية من الحب الذي كنت تكنه لي يومًا، فإن آخر ما التمسه منك، هو أن تسمح بدفن جسدينا معًا أمام الملأ، ما دمت لم تطق أن تجمع شملنا

السعادة في حياتنا».

ومنعه الحزن العاصف من أن يجيب، وما لبثت الأميرة أن ضمت القلب بشدة إلى صدرها، وقد أحست بمنيتها تدنو، وتمتمت: «ألا استقبلينا أيتها السماء، فإنني أموت».

ثم أغمضت عينيها، وفارقها كل شعور.. وما لبثت أن فارقت هذه الحياة التعيسة.

وبهذا انتهى غرام «جسكاردو», و«جيسموندا» كما سمعتم. وأمر الملك —وهو نادم على قسوته، بعد فوات الأوان– أن يدفنا في قبر واحد، يشيعا إليه في أعظم احتفال أقيم في عهده، في غمرة الحزن الشامل الذي ساد أهل «ساليرنو».

اليوم الخامس

الحب.. يصنع المعجزات

رمقت ملكة اليوم الخامس «بامفيلو» وهي تبتسم، ثم سألته أن يبدأ قصص الحظ الحسن، فلبى «بامفيلو» طلب الملكة في اغتباط، وشرع يقول:

«ما أكثر القصص التي تخطر لي –يا سيداتي الحسنوات– كي أرويها وأنا أستهل قصص يوم حافل بالسرور! على أن واحدة منها تفوق سواها إلحاحًا على ذهني، لا لأنها من القصص ذات النهايات السعيدة –التي طلبت منا اليوم– فحسب، وإنما لأنها تمكنكم جميعًا من أن تدركوا مدى ما للحب من قداسة، وسلطان، وامتاع، وإن سفهه بعض الذين لا يعقلون، وأساءوا إليه بغير حق».

حدث – على ما قرأنا في تواريخ القبرصيين القديمة– أن كان يعيش في جزيرة «قبرص»، في بعض الأزمان، رجل عظيم الجاه والقدر يُدعى «اريستيبوس». وكان غنيًا، رُزق وفرة من كل متاع الدنيا تفوق كل ما أوتيه بنو بلده، كما أنه كان خليقًا بأن يعتبر نفسه فريدًا فيما أصاب من مُحاباة الطالع، لولا عيب واحد كتبه الحظ من نصيبه.. وكان ذلك العيب؛ أن أجمل أبنائه صورة، وأوفاهم نموًا كان على درجة من العته والبلاهة لا سبيل

إلى علاجها. وكان اسمه الحقيقي «جاليسو»، ولكن الناس اصطلحوا على أن ينادوه، فيما بينهم، باسم «سيمون» —ومعناه في لغتهم: «الحيوان البري»— لأن جهود معلميه وحذقهم، ونصائح أبيه وتوجيهاته، لم تفلح جميعها في أن تثبت في ذهنه حرفًا واحدًا، أو معرفة بأي شيء من الأشياء، ومن ثم نشأ وفي حديثه خشونة وجفاء.

وظل الوالد يتعهده طويلًا باهتمام مُفرط ، حتى إذا تبددت كل آماله فيه، أمر باقصائه من أمامه، حتى لا يكون منظره مبعث حزن مستمر له. وبالفعل، أبعد هذا الابن إلى قصر أبيه الريفي، ليعيش هناك بين المشتغلين في أراضيه. وكان هذا الإقصاء أحب شيء إلى قلب «سيمون»؛ إذ كان أهل الريف وأمثالهم قريبين إلى نفسه وعقله.

وهكذا عاش الفتى في الريف، يُمارس كل الحماقات التي أدت إلى ذلك اللون من الحياة. إلى أن حدث ذات يوم أن كان ماضيًا —حوالي الظهيرة— متنقلًا من مزرعة إلى أخرى، وعصاه فوق كتفه حين اجتاز دغلا ظليلًا هادئًا. وكان الشهر شهر مايو، والمروج تمتد مزهرة، موردة. وقاده حظه بعد ذلك إلى مرج يحيط به سياج من أشجار سامقة، وقد انبثق في ركن منه نبع نمير، استلقت بجواره – على الحشائش– حسناء بارعة الجمال، ناعسة، وقد ارتدت ثيابًا فخمة، رقيقة، لا تكاد تستر جسدها البض، اللهم إلا فيما تحت الخصر حيث كان الجزء الأسفل من الثوب منسوجًا من حرير رفيع, وتحت قدمي الحسناء نام كذلك خادم ووصيفتان.

وما إن وقعت عينا «سيمون» على الحسناء، حتى اتكأ على عصاه، وأخذ يحملق في الفتاة، دون أن ينبس ببنت شفة، وقد استبدت به الدهشة، وكأنه لم ير من قبل وجه امرأة.. وفيما هو كذلك، انبعثت فجأة في ذهنه الخشن الذي لم ترهفه الحضارة، والذي عجز من قبل عن استيعاب أتفه مبادئ حسن السلوك والخلق.. انبعثت فجأة في هذا الذهن فكرة بدا أنها أوحت إلى فهمه الغليظ، وإدراكه الضحل، أن المنظر الذي كان أمامه هو أبدع المناظر التي رآها في حياته.. ومن ثم شرع يتأمل الحسناء في مزيد من الإمعان، وأخذ يطري -في نفسه- خصل شعرها الذهبي، ووجهها، ونحرها، وذراعيها، وصدرها الناهد الرقيق، وتحول إذ ذاك من المعتوه -الذي كانه- إلى خبير في أنواع الجمال. واشتدت به الرغبة في أن يرى عينيها، فأوشك لهذا أن يوقظها في أكثر من مرة، ولكنه خشي أن لا تكون من البشر؛ إذ كانت تفوق كل من سبق له أن رأى من نساء.. وحمله هذا الظن على أن ينتظر ليرى ما إذا كانت ستستيقظ من تلقاء نفسها، ومع أن النتيجة بدت له غير جديرة بكل هذا الارتقاب، إلا أن إعجابه بالحسناء جعله لا يقوى على مبارحتها.

واستيقظت الفتاة - وكان اسمها «ايفيجينيا»- بعد فترة طويلة. فما إن رفعت رأسها، حتى رأت «سيمون» يقف متكئا على عصاه، فتولتها الدهشة، وهتفت: «سيمون! ما الذي تفعله هنا في مثل هذا الوقت من النهار؟!». وكان الشاب معروفًا في الريف بأسره نظرًا لغبائه، ولجاه أبيه وعظم ثرائه.

ولم يجب «سيمون»، بل يظل يحدق في وجهها الذي خيل إليه أنه يفيض بعذوبة كانت تملأ نفسه بنوع من الغبطة لم يعرفه من قبل. أما الفتاة، فلم تطمئن؛ إذ كانت تخشى أن يقدم على حماقة من حماقاته، ومن ثم نادت وصيفتيها، ثم قالت: «انصرف لشأنك يا سيمون»، ولكنه قال: «بل سأمضي معك» ومع إنها كانت خائفة، تؤثر أن تتحاشى صحبته، إلا أنه أبى أن يفارقها حتى بلغ بها دارها. ثم تحول صوب قصر أبيه، حيث أعلن أنه لا يعتزم العودة إلى الريف، فقابل الأهل ذلك بامتعاض، ولكنهم آثروا ان يدعوه وشأنه ارتقابًا لما قد يسفر عنه هذا التطور في طباعه.

وهكذا احرق الحب قلبه الذي لم يقدر لشيء من قبل أن ينفذ إليه. ولم تمض سوى فترة وجيزة، حتى تطور تفكيره ومسلكه تطورًا بعيدًا أسلم أباه وأهله – بل وكل شخص عرفه– في دهشة طاغية. فقد كان أول ما فعله أن طلب إلى أبيه ثيابًا ومتاعًا ككل ما كان يصيبه أخوته.. فوافق الأب في طواعية ورضا.

كذلك لم ينقض طويل وقت، حتى استطاع باختلاطه ضباب الطبقة الراقية –ومراقبة تصرفاتهم ومسلك العشاق منهم، بوجه خاص– أن يتغلب على بداوته الأولى، وعلى استعصاء العلم على ذهنه؛ فما لبث أن ألم إلمامًا كبيرًا بالفلسفة. وبفضل حبه لايفيجينيا – فقط – تحول حديثه الخشن الغليظ، إلى أسلوب رقيق عذب. وبرز في الموسيقى والفروسية، وأصبح خبيرًا بالفنون العسكرية –البرية والبحرية على السواء– وبطلًا من

أبسل الأبطال. ولن يسعنا أن نستعرض كل نواحي تفوقه، ولكنا نجتزئ فنقول إنه أصبح –قبل أن ينتهي العام الرابع على وقوعه في الحب– أبدع هضاب الجزيرة في كل شيء، بل أبدع شاب تزهو به الجزيرة.

وتفسير ذلك –يا سيداتي الجليلات– أمر بسيط؛ فهو بالتأكيد لا يتجاوز هذا التبرير ، ذلك أن جميع الخصال الحميدة، والميزات النبيلة التي بثتها الطبيعة في الفتى، ظلت حبيسة في قلبه، مكبوتة في نفسه، وكأن عليها مائة قفل ورتاج.. حتى جاء الحب – وهو إله أعظم قدرًا من الحظ– فبدد سلطان النعاس. ودفع بكل قواه تلك المواهب الحبيسة إلى خارج سجنها الذي طال التزامها إياه، فتبدد الغباء والخمول بسحر باهر.

وكان من المعقول أن تكون لسيمون جولاته في الهوى ككل الضباب، لاسيما وأن «أريستيبوس» –أباه– شجعه على الذهاب وراء مسراته، حين أدرك أن حب «سيمون» لايفيجينيا الذي جعل منه مثل هذا الرجل.. على أن «سيمون» الذي أبى أن يعود الى اسم «جاليسو»؛ لأن «ايفيجينا» اسمته «سيمون» –شاء أن يقود غرامه الى نهاية سعيدة– فطلب يد حبيبته مرارًا من أبيها «سايبسيوس»، لكن هذا كان يجيبه بأنه وعد بأن يزوجها من شاب يدعى «باسيموندا» من نبلاء «رودس»، وأنه لن ينكث بوعده.

وما لبث أن حان الموعد الذى كان مُحددًا لإعلان الخطبة ثم الزواج؛ فأرسل الشاب الرودسي يطلب يد «ايفجينيا» رسميًا، فقال «سيمون» في نفسه : «أواه، يا ايفيجينا، لقد جاء الوقت الذى أبرهن فيه على مدى

حبي لك، لقد صرت إنسانًا بسببك، ولو إنني ظفرت بك، لغدوت في أقصى قمم المجد والسعادة، كالآلهة نفسها.. لسوف أحظى بك أو أموت».

وجمع نفرًا من أوجه الشباب من أصدقائه، فأهاب بهم أن يعاونوه؛ فأعدوا —في السر— سفينة حربية مزودة بكل معدات القتال، ثم خرجوا الى عرض البحر في ارتقاب السفينة التي كانت تقل «ايفيجينيا» إلى «رودس» بلد زوجها.. فلما انتهت الإجراءات أخيرًا، وصعدت «ايفيجينيا» إلى السفينة التي أقلعت بها، اتخذ «سيمون» أهبته، وانطلق بسفينته وراءها، حتى اقترب من السفينة الأولى، فوقف عند مقدمة سفينته، وصاح فيمن كانوا يرافقون «ايفيجينيا»: «قفوا.. انزلوا الأشرعة، أو فارتقبوا هزيمة تودي بكم الى قاع البحر».. فلما رأي «الأعداء» يحملون أسلحتهم الى سطح السفينة، ويتأهبون للقتال، اتبع قوله بالفعل، فألقى خطافًا كبيرًا على سفينة الرودسيين، وشدها الى سفينته، ثم قفز كالأسد —غير عابئ بشيء— الى السفينة الرودسية، وقد ألهب الهوي عزيمته، فشهر سيفه في يده، واندفع بقوة جبارة بين الأعداء، وأطاح فيهم بالسيف ذات اليمين، وذات الشمال، وذبحهم كالنعاج.. وبهت الرودسيون الباقون لفورته وهياجه، فأعلنوا التسليم، وارتضوا أن يكونوا أسرى. وإذ ذاك، صاح سيمون: «أيها البواسل، ما خرجت من قبرص لأهاجمكم في عرض البحار بالسلاح بغية سلب ولا إثارة لعداء، وإنما دعاني إليكم الشوق إلى تلك التي أعتبر الظفر بها من أعظم الأمور.. فإن حبي لايفيجينيا يفوق كل حب.. وإذا كنت لم أوفق إلى نيلها من أبيها بسلام ومودة، فإن الحب قد

دفعني إلى أن أنتزعها منكم بهذه الطريقة الباسلة، وبقوة السلاح.. فأسلموني إياها، وامضوا في طريقكم ترافقكم السلامة».

وبالفعل، أسلمه الرودسيون «ايفيجينيا» بدافع من الخوف، وليس بدافع من الكرم. وما إن لاحظ «سيمون» أن وجهها مبلل بالدموع، حتى هتف بها: «لا تأسي يا سيدتي النبيلة، فها أنذا «سيمون» ملك يديك، وفي خدمتك».. ونقلها إلى ظهر سفينته، ثم أمر الرودسيون بالانطلاق في طريقهم دون أن يمس شيئًا من متاعهم, وجعله فوزه بهذه الجائزة الغالية أسعد إنسان في العالم. وما إن طمأن خوفها، وسرى عنها أساها، حتى تحول إلى رفاقه يتبادل معهم الرأي؛ فانتهوا إلى أن من الخير أن يتنكبوا طريق العودة الى «قبرص»، وأن يتجهوا لفورهم إلى جزيرة «كريت» حيث كان لهم جميعًا من الأصدقاء والأهل من يستطيعون الركون إليهم ليكفلوا لهم – ولسيمون وايفيجينيا بوجه خاص– أسباب الأمن والسلامة.

ويمموا شطر «كريت»، ولكن الحظ المتقلب الذي وهب «سيمون» حبيبته بعد نصر مجيد، لم يلبث أن قلب فرح العاشق الشاب الى ترح وأسي. إذ لم تكد تمضي أربع ساعات على فراقهم للرودسيين، حتى هبط الليل. وكان «سيمون» أكثر أهل السفينة شوقًا الى المقدمة، بعد أن صارت حبيبته على مقربة منه. ولكن الليل جاء مقترنًا بعاصفة من أعتى العواصف؛ فلم يعد القوم يبصرون شيئًا، أو يعرفون مكانهم، ولم يعودوا قادرين على تسيير السفينة.

وفي وسعكم أن تتصوروا مدى جزع «سيمون» في هذه الظروف, فقد

خيل إليه أن السماء لم تنله أمنيته إلا لتجعل الموت أمر مذاقًا في فمه من ذي قبل، حين كان لا يقيم له كبير وزن.. كذلك وجم زملاؤه, ولكن «ايفيجينيا» كانت أكثر الجميع فزعًا؛ اذ راحت ترتجف عند كل رجة تهز السفينة. ولم تكن قد أقرت بعد تهور «سيمون»، فراحت تقول إن العاصف إنما انقضت من السماء لغير ما غرض سوى إلحاق الخيبة به، لأنه أقدم على انتزاعها ضد إرادة الآلهة، وإن لن يحيق به عقاب أشد من أن يراها تسبقه الى الموت، فإذا جاء دوره، كان أتعس منها حالاً.

ووسط هذه المحنة كانت الرياح تشتد عنفًا، والبحارة لا حول لهم ولا حيلة، والأمواج تتقاذف السفينة، حتى ألقت بها في النهاية على مقربة من جزيرة «رودس». ولم يكن الشبان ليعرفوا أين رسوا، وإنما كان كل همهم أن يبلغوا البر بكل وسيلة ممكنة حفظًا لسلامتهم. واستطاعوا أخيرًا أن يقتربوا من الساحل، وأن ينفذوا الى خليج صغير، كانت قد سبقتهم إليه مباشرة تلك السفينة التي اختطفوا من فوقها «ايفيجينيا».

غير إنهم لم يفطنوا إليها، ولا انتبهوا إلى أنهم في «رودس» إلا عندهم انبثق ضوء الصباح التالي، فرأوا –على قاب قوسيين منهم– تلك السفينة التي التحموا معها في اليوم السابق. واضطرب «سيمون» للأمر أشد الاضطراب، وخشى ما قد يترتب على ذلك من عواقب؛ فأمر زملاءه بأن ينطلقوا بسفينتهم الى عرض البحر، وأن يسلموا أنفسهم الى القدر، فلن يكونوا معرضين في أي مكان لخطر يفوق ذلك الذي كان يتهددهم في الخليج.

وراحوا يبذلون قصارى ما في وسعهم للخروج بالسفينة، ولكن دون جدوى. فقد كانت الريح تهب بشدة في اتجاه مغاير لاتجاههم، فتدفعهم إلى الشاطئ رغم كل الجهود التي بذلت لتفادي ذلك. وسرعان ما تعرف ملاحو السفينة الأخرى عليهم؛ فجرى واحد منهم إلى المدينة المجاورة، وأنبأ سادته -الذين كانوا قد ذهبوا إليها بمجرد وصولهم إلى البر- أن سفينة «سيمون» قد ألقت بها الريح إلى البر. وما أن سمع القوم ذلك، حتى اصطحبوا حشدًا كبيرًا الى الشاطئ، واعتقلوا «سيمون», ورفاقه، وايفيجينيا»، وساقوهم جميعًا إلى المدينة.

وعندما بلغت هذه الأنباء مسمع «باسيموندا» -خطيب «ايفيجينيا»- رفع أمره الى مجلس الشيوخ الذي أوفد «ليسيماخس» الموكل بالأمن في ذلك العام مع فريق من الشرطة ليلقوا بالأسرى في غياهب السجن. وهكذا فقد «سيمون» التعس حبيبته بمجرد أن ظفر بها، دون ان يفوز بأكثر من قبلة جزاء ما خاض من عناء.. أما «ايفيجينيا» فقد أسلمت الى عدد من السيدات والسادة من علية القوم فرفهوا عنها ما تجشمت في أسر «سيمون»، وفي غمرة العاصفة، وبقيت بينهم حتى يوم زفافها. وعلى الرغم من كل ما بذل «باسيموندا»، فقد استطاع «سيمون» وزملاؤه أن ينجوا بحياتهم لقاء ما أظهروا من رحمة بالرودسيين عندما هاجموا سفينتهم. واكتفي القضاء بالسجن المؤبد لهم، فبقوا في الأغلال يرسفون، وليس من أمل لهم في الحرية.

وفي تلك الأثناء، كان «باسيموندا» منهمكًا في إعداد التدابير لزفافه. وكأنما ندم القدر على ما أنزله بسيمون في ضرر؛ فخلق ظروفًا جديدة

لخلاصه. فقد كان لباسيموندا أخ يصغره في السن، ولكنه يزيد عنه في الفضائل، ويدعى «اوريمسدا». وكانت الشائعات تردد أنه يوشك أن يتزوج من سيدة حسناء في المدينة تدعى «كساندرا»، كان «ليسيماخس» – الموكل بالأمن– مولعًا بها أيضًا، وقد قامت أحداث غير سعيدة حالت دون زواجه منها منذ أمد. فلما تقرر أن تقام احتفالات هائلة، ومآدب فخمة لزواج «باسيموندا»؛ رُوي أن عقد زواج أخيه في الوقت ذاته يؤدي إلى اقتصاد كبير في النفقات.. ومن ثم عمد «اوريمسدا» إلى إقناع «كساندرا» بقبول الزواج منه، وتم الاتفاق على أن يعقد زواج «باسيموندا» من «ايفيجينيا»، و«اوريمسدا» من «كساندرا» في وقت واحد. وكان هذا مبعث غم كبير لليسيماخس الذي رأي نفسه وقد جرد من آخر أمل في الزواج من الحسناء. ولكنه كان من الحكمة بحيث أخفى ما في نفسه، وشرع يسعى لإفساد الزواج المشترك؛ فلم يجد أمامه من وسيلة سوى اختطاف حبيبته عنوة, ولكنه رأى أن هذا لا يتفق ومنصبه. وبعد نقاش عويل بينه وبين نفسه، تراجع المنصب أمام الحب، وانتهى الى وجوب اختطاف «كساندرا».

ومن ثم عكف على اختيار الأنصار الذين يساعدونه في ذلك, والوسيلة التي ينتهجها. وسرعان ما تذكر «سيمون» الذي كان وزملاؤه في السجن تحت إشرافه، فلم ير خيرًا من زملاء كهؤلاء، ولا وجد من يأتمنه ويثق في وفائه سوي «سيمون». ومن ثم بادر باستدعائه الى مكتبه سرًا، وتحدث إليه على هذا النحو:

«يا سيمون.. لما كانت الآلهة خير من يهب البشر جميع النعم، فإنها

كذلك أقدر من يحكم على فضائلنا ومواهبنا.. وكما أنها تبدي حزمًا في كافة الأمور، فإنها تخلق كذلك الظروف للإقدام على جلائل الأعمال. وقد رأت الآلهة أن تتيح لك فرصة –لتثبت جرأتك وإقدامك– تفوق كل الفرص التي أتيحت لك في دار أبيك، الذي أعلم أنه واسع الثراء والجاه. فلقد بلغني أن الآلهة – بقوة الحب الحافزة– جعلت منك إنسانًا، إن أرادت – بتقلب الحظ، وبما ترديت فيه من سجن تعس– أن يعتبر ما إذا كانت المحن قادرة على أن تغير من نفسك وروحك. وإذا كان في وسعك أن تظل قوي العزم؛ فإن الآلهة لن تجزيك بأكثر من الفرصة التي أعرضها عليك الآن، لتبدى بسالتك. لقد استبد الفرح بباسيموندا على حساب شقائك, فهو يسعي دائبًا للتعجيل بموتك، كما أنه يوشك أن يزف على حبيبتك «ايفيجينيا» مستغلاً تقلبات الحظ والقدر. ولن يدرك أثر ذلك عليك سواي، لأنني معرض لمثله بالنسبة لحبيبتي «كساندرا» التي تقرر أن تزف إلى «اوريمسدا» شقيق غريمك. ولست أرى من علاج لحالك وحالي سوي أن نوحد قوانا وعزائمنا؛ اذ لابد لنا من أن نشق طريقنا الى غايتينا بحد السيف، فتفوز أنت بحبيبتك للمرة الثانية، وأظفر أنا بحبيبتي للمرة الأولى. فإذا كنت تعتز بحريتك.. لا، فليس لهذه من قيمة بغير حبيبتك.. إذا كنت تعتز بحبيبتك، فليس عليك سوى أن تتبعني، فتجد الحظ في ركابك».

وفعلت هذه الكلمات فعلها في بعث روح «سيمون» من تخاذلها وقنوطها، فبادر قائلا: «ماكنت يا ليسماخس لتظفر بصديق أشد عزمًا، ولا أجدّ بالثقة مني كي يزاملك في مشروع كهذا لو صح أنه كما وصفته.

وليس عليك سوى أن تحدد موعدًا لتجدني مبادرًا إلى تنفيذ أمرك»..
فأجاب ليسيماخس: «ستنقل السيدتان إلى دار الزوجين المنتظرين بعد ثلاثة أيام. ففي مساء اليوم المعين للزفاف، سنذهب جميعًا –أنت وزملاؤك، وأنا وبعض من أثق فيهم وأركن إليهم– ونقتحم الدار بقوة السلاح –والقوم في غمرة أفراحهم– فنستولي على السيدتين، ثم نحملهما إلى سفينة أعددتها في الخفاء، بعد أن نقتل كل من تحدثه نفسه بالوقوف في طريقنا».

وارتاح «سيمون» للخطة، فأقرها، ومن ثم تربص في انتظار ساعة العمل. فلما حان يوم الزفاف، وامتلأت أرجاء البيت بمظاهر الفرح والاحتفالات، قسم «ليسيماخس», و«سيمون» زملاءهما الى ثلاث فرق. وبعد أن رسم لهم ليسيماخس خطة التنكر، أوفد الفرقة الى المرفأ لتؤمن نجاة الجميع، وسعى إلى دار «باسيموندا» مع الفرقتين الأخريين؛ فأقام أحداهما لدى الباب الخارجي لتحول دون فرار أي شخص وتحصر الجميع داخل البيت، بينما مضى و«سيمون» فصعدا إلى الطابق الأعلى لتنفيذ بقية الخطة. وما أن بلغا قاعة الطعام، حيث كانت العروسان تجلسان الى المائدة مع كثير من السيدات، حتى اقتحما المكان؛ فقلبا الموائد، وأمسك كل منهما بحبيبته، فأسلمها الى أعوانه، وأمرهم بأن يحملوها إلى السفينة. وولولت العروسان, والسيدات, والخدم في جلبة سرعان ما أثارت ضجيجًا في المكان؛ فشهر «سيمون», و«ليسيماخس», وأعوانهما سيوفهم، وهبطوا من الدار دون أن يقوى أحد على اعتراض طريقهم. حتى التقوا في الطابق الأسفل بباسيموندا، وقد أمسك في يده بهراوة ضخمة، وأقبل على

أصوات الصراخ. وبضربة واحدة من سيفه ألقاه «سيمون» قتيلاً عند قدميه، فلما أقبل «اوريمسدا» لنجدة أخيه، ألحقه «سيمون» به. ودار عراك مات فيه من مات، وجرح من جرح من أعوان الشقيقين.

وهكذا نفذ «سيمون» و«ليسيماخس» من الدار التي سادتها الفوضى وتناثرت في أرجائها الدماء، فلحقا بأعوانهما، وأسرعوا جميعا لفورهم الى سفينتهم، حاملين «غنيمتيهما» دون أن يصادفوا أي مقاومة. وما أن نقلوا السيدتين إلى سطح السفينة ولحقوا بهما جميعًا، حتى كان الشاطئ قد ازدحم بجماعات من الناس المسلحين، ولكن السفينة انطلقت لفورها تعمق طريقها مظفرة إلى «كريت». وهناك، استقبلها –بالفرح والابتهاج– أصدقاء ركابها وأهلوهم. وسرعان ما زف «سيمون»، و«ليسيماخس» الى عروسيهما في احتفال رائع.

وأثار هذا الحادث معارك كثيرة بين الجزيرتين؛ فانتهت «ايفيجينيا» إلى قبرص، ورجع كذلك «ليسيماخس» و«كساندرا» إلى رودس. وعاش الجميع في سعادة وهناءة ما بقي لهم من أعمار في الحياة.

البلبل.. في القفص

.. وحان دور «فيلوستراتو»، فقال:

«إننى إذ أراني مضطرًا لأن أروي لكم قصة تضحككم؛ سأقص عليكم نبأ غرام لم يلبث – بعد أن خالطته بضع زفرات آسية، ونوبات محزنة، وفضيحة مخزية– أن انتهى الى خاتمة سعيدة. ومعذرة لقصر القصة».

عاش في روما –منذ عهد غير بعيد– فارس جليل القدر والمقام، يُدعى «ليزيو دافالبونا» وقد أنجبت له زوجته «مادونا جياكومينا» –في شيخوخته– ابنة، لم تلبث ان اعتبرت أجمل فتيات البلاد، حين أدركت سن الشباب. ولما كانت وحيدة أبويها، فقد أسرف الوالدان في إغداق رعايتهما عليها، عسى أن يصلا عن طريقها الى مصاهرة رفيعة.

وكان يكثر من التردد عليهما سيد يدعى «ريكاردو»، ينتمي الى أسرة «ماناردى دابرتينورو» وكان شابًا بالغ اللطف ودماثة الخلق ؛ فلم يشعر «ليزيو» وزوجته نحوه بأكثر من شعور الوالدين نحو ابن لهما ، ولكن كثرة التقائه بالفتاة جعلته يفتتن بشخصها وخلقها، فما لبث أن تدله في هواها دون أن يتمكن من الجهر بوجده. على أن الفتاة فطنت إلى شعور الشاب نحوها، فبادلته إياه ، مما أسعد الشاب الذي كان يتحرق شوقًا إلى مناجاتها، دون ان تواتيه الجرأة. ولكن مبادلة الفتاة إياه في هواه زودته بالجرأة الكافية ، فلما سنحت له الفرصة، قال لها: «أتوسل إليك يا كاترينا أن لا تدعيني أموت وجدا». فأجابته قائلة: «بل إنني أتمنى على السماء أن تلهمك كي

توليني ما تنشده مني، من إشفاق».

وأطربه هذا، فعاد يقول: «لسوف أتلمس إرادتك وهناءتك في كل شيء.. ألا تعرفين وسيلة نسعد بها معا؟». فأجابته: «إنك لترى يا ريكاردو كيف يراقبونني، ولذلك فليس في وسعي أن أهيء سبيلا لاتصالنا. أما إذا استطعت أنت أن تفكر في طريقة لذلك –دون أن تعرضني للوم والمؤاخذة– فأخبرني بها، لأن في هذا كل السعادة لى».

وأطال «ريكاردو» التفكير، ثم قال: «لست أرى يا كاترينا العزيزة سوى وسيلة واحدة، وهي أن تستأذني في النوم بالبهو الملاصق لحديقة والدك، فاذا علمت أنك تقضين الليل فيه، لم أخفق في الوصول إليك هناك، مهما يبلغ ارتفاعه عن الأرض».. قالت: «أظنني قادرة على تدبير الأمر لأتخذ هناك مرقدي، إذا كنت تصر على هذا».

فوعدها بأن يوافيها، ثم تعانقا على عجل خشبية أن يراهما أحد، وما لبث الشاب أن استأذن في الانصراف.

وفي اليوم التالي – وكان من الأيام الأخيرة في شهر مايو– شكت الفتاة إلى والدتها أنها لم يغمض لها جفن في الليلة الماضية لاشتداد حرارة الطقس، فأجابتها الأم: «ماذا تعنين يا طفلتي؟ هل الطقس حار حقيقة؟.. إنه على العكس تمامًا».. ولكن الفتاه قالت: «خليق بك أن تشاوري أبي في هذا الأمر يا أماه. ومهما يكن رأيه، يجب أن تتذكري أن الشباب أكثر تأثرًا بالطقس ممن يكبرونهم سنًا».. فأجابت الأم: «هذا حق لا مرية فيه، ولكنى لا أملك التحكم في الطقس الحار أو البارد وفق مزاجك؛ ولذا

ينبغي أن نأخذ هذه الأشياء على علاتها حسب فصول السنة. وربما تجيء الليلة التالية أقرب الى البرودة فتحظين فيها بما لم تحظى به في الليلة السابقة من نوم».

قالت كاترينا: «لتسمع منك السماء، ولكننا لم نعتد أن نرى الحرارة تهبط كلما تقدم الصيف».. فسألتها الأم: «فما الذي تبغين إذن؟».. وهنا أجابتها الفتاة: «ليت والدي يوافق – بعد رضائك – على أن يُقام لي سرير صغير في البهو القريب من حجرته المشرفة على الحديقة، حيث أستطيع أن أنام، وان أصغي الى البلبل، وأستنشق الهواء العليل، فأنعم براحة تفوق ما يُتاح لي في حجرتنا».. فقالت أمها: «آه.. حسنًا.. كفى.. سوف أتحدث إلى والدك، فالرأي له».

وإذ كان «ليزيو» طاعنًا في السن، سريع الغضب والانفعال، فقد صاح عندما حدّثته زوجته في الأمر: «أي بلبل هذا الذي تريد أن يجلب النوم إلى عينيها؟ لسوف أجعلها تنام على صوت الصراصير».

وإذ عرفت «كاترينا» برأي أبيها، هجر النوم عينيها طوال ليلتها بتأثير الأسي أكثر مما هو بسبب حرارة الطقس.. وأقضت مضجع أمها بشكواها المتصلة، مما جعل الزوجة تبادر الى السيد ليزيو في الصباح التالي، قائلة: «إنك لا تمنح ابنتك في الواقع غير عناية ضئيلة، وإلا فلماذا لا تدعها تنام في البهو؟.. لقد أمضتها حرارة الجو حتى جافاها النوم طوال الليل.. ثم لماذا تعجب للهفتها على أن تنصت إلى البلبل؟ إنها لا تعدو أن تكون طفلة، والأطفال تسرهم هذه التفاهات الصبيانية».. فأجابها ليزيو:

«حسنًا، فلينصب لها سرير هناك إن رأت ذلك، وليحط بستائر سميكة.. عسى أن تنام وتنصت الى البلبل كما يروق لها».

وعندما أنهت الأم هذا الخبر السار إلى «كاترينا»، بادرت هذه تشرف بنفسها على إعداد السرير الذى تقرر أن يقام بالبهو في الليلة التالية، وما لبثت – بإشارة متفق عليها من قبل– أن أنهت الخبر الى «ريكاردو»، الذي كان قد درس ما ينبغي عمله بعد ذلك.. فلما رقدت الابنة لتستريح، أغلق السيد «ليزيو» الباب المفضي الى البهو, ثم نام بدوره.

وما أن استوثق «ريكاردو» من أن الهدوء قد شمل البيت، حتى تسلق أحد الجدران مستعينًا بسلم. ثم تشبث بنتوء في الجدار، ووثب منه على جدار آخر، حتى بلغ البهو، غير حافل بالأخطار. وهناك استقبلته الشابة في حذر تخالطه غبطة بالغة. وبعد قبلات محمومة، ارتدا الى الفراش؛ فقضيا الليل في سعادة وهناءة، وغرد البلبل مرات ومرات.

ولما كان الليل في هذا الفصل من السنة قصير العمر، فقد هبط الفجر عندما غلبتهما الحاجة الى الراحة والاسترخاء، فاستغرقا في النوم. وبسبب حرارة الهواء، أزاحا جانبًا كل غطاء، ورقدت الفتاة وهي تطوق عشيقها بذراعها.

وفيما كانا راقدين وهما على هذا الوضع، استيقظ السيد «ليزيو». وتذكر لهفة ابنته على النوم، ففتح الباب وهو يحدث نفسه: «لنر كيف جعل البلبل كاترينا تستسلم للنوم».. وتقدم فأزاح ستائر السرير ليراها مع

«ريكاردو» في ذلك الوضع. وإذ تعرف على الشاب، أسرع الى مخدع زوجته فناداها بأعلى صوته قائلا:

انهضي أيتها الزوجة.. تعالي وانظري لماذا كانت ابنتك تتلهف كل اللهفة على «البلبل»؟ سترين الآن كيف أمسكته وتشبثت به.

فقالت الزوجة: «أحقا ما تقول؟ أممكن هذا؟.. فقال: «لسوف ترين بنفسك إذا ما أسرعت».. وعندئذ بادرت السيدة الى ارتداء ملابسها ثم تبعت زوجها.. ولما أزيحت الستائر، شاهدت بوضوح كيف صادت ابنتها «البلبل» الذى راق لها شدوه، فلم تفلته من يديها.. واستنكرت العجوز خداع ريكاردو، فودت لو تصيح في وجهه، لولا أن «ليزيو» خاطبها قائلًا: «إذا كنت تحبينني يا امرأة فحذار أن تتحدثي عن هذا بكلمة واحدة؛ إذ يجب أن تطمئني إلى أن هذا البلبل سيظل لها ما دامت قد صادته.. إن ريكاردو ينحدر من أسرة كريمة، مثرية، يجمل أن نصاهرها.. وعليه –إذا أراد أن ينجو بجلده– أن يتزوج من الفتاة أولاً؛ لنطمئن إلى أن البلبل قد أودع في القفص الذي خلق من أجله دون سواه».

وارتاحت الزوجة لذلك، لاسيما حين رأت زوجها وقد هدأت ثائرته؛ فلم تشأ أن تنبس بحرف واحد بعد أن قضت ابنتها الليل على أحسن حال، وقد ارتاحت نفسها إذ ظفرت ببلبلها.. وما لبث «ريكاردو» أن استيقظ ورأى النهار في رائعته.. فأدرك أنه قد كتب عليه الهلاك.. والتفت الى كاترينا قائلا: «وأسفاه يا عزيزتي.. لقد باغتنا ضياء النهار فماذا نصنع؟».

وهنا تقدم السيد «ليزيو» – الذي كان واقفًا متربصًا– فجذب الستائر وهو يقول: «سنصنع كل خير».. فلما رآه الشاب اشتد به الذهول.. ثم نهض من الفراش صائحًا: «بالله اصفح عني يا سيدي.. أنا أعترف لك بأنني أجرمت في حقك، وقمت بدور الخائن الغادر، وبأنني خليق بالموت جزاء ما اقترفت، فاصنع بي ما تشاء، ولكنى أضرع إليك أن تبقي على حياتي». فأجابه ليزيو: «إن الحب الذى كنت أكنه لك يا ريكاردو، والثقة التي أوليتك إياها ما كانا يستحقان أن يقابلا منك بهذا الجزاء.. أما والأمر كذلك، وقد حملتك نزوات الشباب الطائشة الى هذا المدى، فإذا كنت ترغب في تجنب الموت – رغبتي في تحاشيه– فعليك قبل أن تغادر هذا المكان أن تتخذ «كاترينا» حليلة شرعية لك، كي تظل لك طوال العمر بمثل ما كانت ليكفي هذه الليلة.. بهذا وحده تظفر بحبي وبحياتك. أما إذا لم ترض بهذا الحل، فاسلم روحك لخالقها».

وفيما كانت هذه الكلمات تتوالى، استردت «كاترينا» جأشها؛ فأخذت في البكاء وهي تضرع الى والدها أن يصفح عن عشيقها، ثم تضرع مرة أخري إلى عشيقها أن يذعن لرغبة أبيها.. وما كان الأمر يستدعي كثير ضراعة ، فإلى جانب الخزي الذي تملك الشاب لما ارتكب من خطيئة –لم ير ما يمنع من إصلاحها– كانت هناك رغبة في الإفلات من موت عاجل.. أضف الى ذلك حبًا مشبوبًا, ورغبة في استمرار الحظوة بالحبيبة... كل هذا حمل الشاب على أن يجهر – وبلا تحفظ– بأنه سيرضي والدها بكل وسيلة. وعندئذ، استعار السيد «ليزيو» من زوجته أحد خواتمها، ولم يغادر أحد مكانه حتى كان «ريكاردو» قد تزوج من «كاترينا»

رسميًا.. واذ ذاك انصرف العجوزان وهما يقولان: «استريحا الآن فربما كانت الراحة هي كل ما تحتاجان إليه».

وإذ تركاهما على انفراد، ضم العاشق فتاته إلى صدره، ثم أضافا أغنيتين أخريين إلى أغاني البلبل قبل أن يغادرا الفراش, وبذلك انتهى اليوم. أما بعد ذلك، فقد تشاورا «ريكاردو», و«ليزيو» في الأمر –على وجه أوسع– فرأيا ضرورة إعداد خطبة جديدة –علنية– يحضرها الأقارب والأصدقاء صونًا لمركزيهما.

وهكذا انتقلت العروس الى منزل حبيبها ليلة الزفاف في أبهة واحتفال كبيرين، ولطالما غنى البلبل بعد ذلك ليل نهار بما ضاعف من سعادة كلاً الزوج والزوجة.

اليوم السادس

منطق "امرأة"!

توجهت «ايليسا» ملكة لليوم السادس؛ فاختارت لقصص ذلك اليوم موضوع سعة الحيلة، وحضور البديهة، وكيف ينقذان صاحبهما من المخاطر والمهالك. فلما حان دور «فيلوستراتو» قال: «من أفضل النعم يا أكرم السيدات، أن يُؤتى المرء القدرة على تنميق الكلام، لكي يبلغ مآربه ، ولكنى أرى هذه الموهبة أفضل ما تكون، إذا عرف المرء كيف يستغلها عندما تدعو الحاجة إليها، كما فعلت سيدة سأروى لكم قصتها ، فقد نجت من موت تلطخه الفضيحة والعار بفضل هذه الموهبة».

فُرض على الأراضي التابعة لمدينه «براتو»، فيما مضى، قانون صارم –لا مبرر له– يقضي بأن تحرق كل امرأة يكتشف زوجها أنها على علاقة آثمة برجل آخر، مسويًا بذلك بينها وبين البغي التي كانت تبيع نفسها بالمال.

وحدث عندما كان هذا القانون ساريًا، أن دهم زوج يدعى «رينالدو دي بوليبيزي»، زوجته الشابة الحسناء «فيليبا»، وقد استسلمت في مخدعها لأحضان عشيق شاب من علية القوم في المدينة، يدعي «لازاريو دى جاتساليوتري»، أحبته الزوجة حبها لنفسها.. فثار الزوج ثورة عاتية، وأوشك أن يفتك بهما، لولا أن اعتزازه بحياته أوحى إليه بأن يدع للقانون

تحقيق ما لا يملك هو – آمنا– تحقيقه.. ومن ثم جمع من الأدلة ما يكفي لإثبات الواقعة، وتقدم الى المحكمة يطلب استدعاء زوجته.

وكانت السيدة جريئة القلب ككل امرأة تحمل عاطفة صادقة، فعولت على الظهور بنفسها أمام القضاء – رغم نصائح صديقاتها– إذ كانت تؤثر أن تموت بعد اعتراف ثابت دامغ، على أن تعيش ذليلة، بعيدة عن وطنها إذا حاولت الهرب من الفضيحة، أو أن تعيش في وطنها مهينة منبوذة، إذا هي أنكرت الحقيقة وتنكرت لحب الرجل الذي وجدت بين ذراعيه.

فلما استدعيت إلى المحكمة لم تتردد في الذهاب.. ورافقها عدد كبير من الصديقات، رحن طوال الطريق يغرينها عبثًا بإنكار الاتهام الموجه إليها. وما إن مثلت أمام القاضي، حتى سألته بأسارير هادئة، ساكنة، عما لديه من قول يبغي توجيهه إليها. وأخذ القاضي بما في جلدها من سمو النفس وعظمة الروح، فبدأ يرثي لها ويعطف عليها، وأشفق من أن تعترف بما قد يدفعه إلى إدانتها إداءً لواجبه، على أنها لم تكف عن سؤاله عما أراد من وراء دعوتها، فقال: «إن زوجكِ رينالدو، الموجود هنا، يؤكد أنه فاجأكِ متلبسة بجريمة الزنا، ومن ثم فهو يصر على طلب إعدامك تطبيقًا للقانون الخاص بهذه الجريمة. ولهذا، أرجو أن تكوني على حذر فيما ستدلي به من إجابة، وأخبريني: أصحيح هذا الاتهام؟».

وأجابت السيدة دون أن يطرف لها جفن، أو يتبدى عليها قلق: «لقد فاجأني زوجي رينالدو حقًا يا سيدى، وأنا بين ذراعي لازاريو في الليلة الماضية.. وما كانت هذه أول مرة يدفعني فيها حبي الملتهب، المستعر، إلى

هذا العمل.. لا، لن أنكر هذا.. ولكني أرى –عن يقين– أن قوانين أي بلد يجب أن تكون عادلة، منصفة، وأن تكون صادرة عن رضا عام من أولئك الذين وضعت لتطبق عليهم، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق بالنسبة للقانون الذى تحاكمني بمقضتاه.. فمع إن صرامته لا تنصب إلا على النساء البائسات، وهن أقدر من الرجال على إرضاء الكثيرين، إلا أنه لم يسن برضاء النساء؛ بل إن رأيهن لم يؤخذ في وضعه. ومن ثم فهو خليق بأن يوصف بأنه قانون جائر.. فإذا أردت تنفيذه ضدي بوحي من ضميرك، فلتكن لك مشيئتك. على أنني أسألك قبل أن تصدر حكمك، أن تمنحني فضلًا ضئيلًا؛ فتسمح لي بأن اسأل زوجي: هل حدث مرة أن أشتهى الاستمتاع بي فلم أمتثل له راضية؟!».

وهنا أجاب «رينالدو» –دون أن ينتظر ريثما يسأله القاضي– بأن زوجته لم تعارض قط رغباته في هذه الناحية.

وعادت السيدة تستأنف حديثها قائلة: «إذن، فدعني أسالك يا سيدي القاضي وقد رأيت إنه كان ينال مني دائمًا ما يشتهي وما يرجو: ما الذى أفعله بما يتبقى من عواطفي؟.. أألقي بها إلى الكلاب؟.. أليس من المعقول أن أرضي بها رجلاً يحبني فوق ما يحب حياته، بدلًا من أن أتركها تفسد وتذهب هباءً؟».

وكانت قاعة المحاكمة قد اكتظت بجمهور كبير من سكان المدينة، اجتذبتهم أهمية القضية، وما كان للسيدة المتهمة من مركز وشهرة. فما إن سمع الحاضرون جوابها الذكي الأريب، حتى انفجروا ضاحكين، وصاحوا في

صوت واحد أنها أصابت –بقولها– كبد الحقيقة وعين الصواب.

وقبل أن يغادروا المحكمة، كان القانون قد تعرض للتعديل بناءً على مشورة القاضي، فاقتصرت عقوبته على الموت للزوجات اللائي «يظلمن» أزواجهن جريًا وراء المال.

وبارح «رينالدو» قاعة المحاكمة وهو بادي الاستياء والحنق، يجرر أذيال الخيبة، بينما نجت زوجته من الحرق، وعادت مظفرة الى دارها.

ذو الساق الواحدة

تلقت «نييفيله» إذن الملكة، فشرعت تقول:

«على رسلكن أيتها السيدات ذوات القلوب النابضة بالحب.. فإن البديهة الحاضرة، وسعة الحيلة، والابتكار، لا تلهم –بالكلمات المناسبة للظروف المتباينة– ذوي اللباقة والبلاغة فحسب، وإنما يخفي الحظ أحيانًا لمساعدة ذوي العي، فيثير على أطراف ألسنتهم –فجأة– من الإجابات البارعة، ما تعجز عنه حيلة أبرع ذوي الدهاء.. كما سترون من القصة التي أرويها فيما يلي»:

كان «كورادو جيانفيلياتي» –كما تعرفون جميعًا– مشهورًا بالشهامة والاستقامة، وهواية الصيد بالصقور والكلاب. فضلاً عن مواهبه الرائعة الأخرى التي لا مجال لذكرها في قصتنا الراهنة.

وحدث أن خرج يومًا للقنص على مقربة من قرية «بيريتولا»؛ فاصطاد طائرا من نوع «الغرنوق», أو «الكركى» الذي اعتاد أن يقف على ساق واحدة، إذا ما نام أو أخلد للاستجمام.. ورأى «كورادو» أن الطائر صغير السن، سمين الجسم، فأرسله إلى داره، وأمر طاهيه –وكان رجلاً من أبناء البندقية يُدعى «كيكيبو» أن يعده على أشهى وجه للعشاء.

وكان الطاهي ساذجًا، محدود التفكير، فذبح الطائر، وأزال ريشه، ثم نثر عليه التوابل وقام بشيه. وتصادف –عندما بدأت رائحة الشواء في التصاعد– أن أقبلت على المطبخ امرأة من الجيران تدعى «برونيتا»، كان

الطاهي مفتونا بها. وإذ أثارت رائحة الشواء شهيتها، راحت تسأل الطاهي في إلحاح أن يهبها ساقًا من الطائر؛ فكان جوابه أن راح يترنم قائلا: «لا ساق لك عندي يا دونا برونيتا».

وأغاظها هذا الجواب؛ فقالت: «إذا لم تهبني ساقًا، فأقسم أن لا أدعك -ما حييت- ترجو مني أي صنيع أو معروف».

وطال الجدال بينهما، ثم احتدم فانقلب الى خصام. لم يجد «كيكيببو» حيلة إزاءه سوى أن يعطي المرأة إحدى ساقي الطائر لاسترضائها. وهكذا، قدم الطائر على مائدة العشاء بساق واحدة، مما حدا بصديق لكورادو -كان قد دعاه إلى العشاء- إلى أن يبدي دهشته. ومن ثم استدعى «كورادو» طاهيه، وسأله عما أصاب الساق الأخرى.

وكان البندقي بطبعه كذوبًا، فبادر مجيبًا: «ليس للغرنوق يا سيدي سوى ساق واحدة».. وأغاظ جوابة «كوارادو»، فصاح مغضبًا: «ما الذي يعنيه هذا الرجل بحق الشيطان؟.. ليس للغرنوق سوى ساق واحدة؟ أظننت أيها الوغد أنني لم أر من قبل غرنوقًا على الإطلاق؟»... فأصر «كيكيبيو» على زعمه قائلا: «ألا صدق ما أقول يا سيدي، وسوف أقنعك متى شئت فأريك غرانيق حية بساق واحدة».

ولم يشأ «كورادو» أن يمضي في اللجاج، مراعاة لوجود صديقه، فاكتفى بأن أضاف إلى ما سبق: «أما وقد تعهدت بأن تريني ما لم أره قط في حياتي، فإني أرتضي أن يكون هذا صباح غد.. ولكني أقسم أنني سأجعلك تذكر هذا الحادث إلى أخر يوم في حياتك إذا وجدت الواقع

يكذب زعمك».

وانتهى الأمر عند هذا الحد في تلك الليلة. على أن الغيظ أقض مضجع «كورادو»، فنهض من فراشه مبكرًا في الصباح التالي، وأمر بإعداد جوادين من جياده، ثم اصطحب «كيكيبيو» في اتجاه النهر، حيث كانت تحلق أسراب من الغرانيق في الصباح الباكر عادة. وقال السيد لطاهيه، وهما في الطريق: «لن نلبث نتبين أينا كان الصادق في الليلة الماضية».

وأدرك الطاهي أن غضب سيده لم ينقضي بعد، وأن عليه أن يثبت ما أكده في أمسه دون أن يدري سبيلاً إلى ذلك الإثبات.. على أنه لم يملك سوى أن يمضي في المقدمة، والخوف يملأ جوانحه. ولكم ود أنه لاذ بالهرب، ولكنه لم يجد لذلك سبيلا. وراح يتلفت حوله خلال الطريق متوقعًا أن يرى الغرانيق بساقين.

على أنه –حين اقتربا من النهر– لمح قبل سيده سربًا من الغرانيق، وقد وقف كل منها على ساق واحدة كعادته حين ينام، فأسرع يلفت نظر سيده الى المنظر وهو يقول: «ها أنت ذا يا سيدي ترى بعينيك أنني لم أقل غير الحق، حين قلت أمس أن ليس للغرنوق سوي ساق واحدة.. هلا تكرمت برؤية هذا السرب؟».. وأبصر «كورادو» الغرانيق، ولكنه فطن أن لكل منها ساقين».. حث جواده مقتربًا من الطيور، وصاح فيها: «هش!.. هش!»، فأزعجها صياحه، وانزلت ساقها الأخرى.

وبعد ان خطت خطوة أو اثنين، انطلقت طائرة؛ إذ ذاك التفت «كورادو» إلى طاهيه قائلا: «حسنًا، أيها الوغد الكذوب.. هل اقتنعت

بأن لها ساقين؟».. وطار صواب «كيكيبيو» فلم يدر بماذا يجيب؟.. بل إنه لم يفطن الى معنى كلماته حين انطلق لسانه فجأة مجيبا: «أجل يا سيدي، ولكنك لم تصح في الغرنوق الذى كان على المائدة ليلة أمس كما صحت الآن هذه الطيور.. ولو أنك هششته كما فعلت الآن لأبرز ساقه الأخرى على نحو ما فعلت هذه الآن».

وصادف هذا الجواب هوى في نفس «كورادو»، إاذا غضبه ينقلب الى ضحك. ولم يتمالك أن قال مازحًا: «أصبت يا كيكيبيو.. كان خليقًا بي أن أهش الطائر بالفعل».

وبفضل هذا الجواب المضحك نجا «كيكيبيو» من نقمة مولاه، ونال رضاه.

اليوم السابع

البرميل

اختار «ديونيو» –عندما نُصِّب ملكًا لليوم السابع– موضوعًا يتعلق بما تبديه المرأة من دهاء وحيلة في سبيل الحب، وخداع الأزواج والخلاص من المأزق.

وعندما حان دور«فيلوسترانو»، قال:

«يا أعز السيدات عندي.. إن الحيل التي تتعرض لها من الرجال، لاسيما أزواجكن، تفوق الحصر. ومن ثم فإذا حدث أن كانت بين النساء من تحذق اللجوء إلى الحيلة مع الرجال، فلا ينبغي أن تبتهجن بالسماع عنها فحسب، وإنما يجب أن تعلمن بأنفسكن على نشر حيلها في كل مكان، ليدرك الرجال أن لديكن مثل ما لديهم من عقل وذكاء.. وهذا من شأنه أن يترك أجمل الأثر؛ إذ يغري الناس على التزام الحذر.. فمن ذا الذي لا يرى أن حديث اليوم كفيل بأن يكبح غرور الرجال أو ثقتهم، حين يجدونكن تعاملنهم: خداعًا بخداع، ومكرًا بمكر؟.. ولسوف أروي لكُنَّ ما الذي فعلته امرأة بزوجها ذات مرة، ضمانًا لسلامتها»:

حدث منذ زمن غير بعيد، أن تزوج رجل فقير – من أهل نابولي– من شابة حسناء تدعى «بيرونيللا» وكان الرجل من البنائين، فاعتادت زوجته

أن تغزل بعض المنسوجات كل يوم لتعاونه في الحصول على ما يكفل لهما عيشًا مناسبًا.

وشاء القدر لشاب من الجيران أن يقع في هوى «بيرونيللا»، وأن يستطيع -بحرارة توسلاته- أن يجعلها تستجيب في النهاية لرغبته. ولما كان الزوج يبرح داره مبكرًا إلى عمله في كل صباح، فقد اتفق العاشقان على أن يكمن الشاب في مكان يرقب منه الزوج عند خروجه، حتى إذا اطمأن إلى رحيله، تسلل إلى المنزل. ووافاها ذات صباح بعد ان رحل زوجها الطيب, وفيما كان «جانيلو سترينياريو» -وهو اسم ذلك العاشق- يمارس عبثه مع معشوقته كالمعتاد، إذا بالزوج يعود، ولم تمض على رحيله فترة طويلة، مع أنه اعتاد أن لا يرجع قبل هبوط الليل. فلما وجد الباب مغلقًا بالمزلاج من الداخل، قرعه وهو يقول لنفسه: «شكرًا للسماء، فإن لي زوجة شريفة رغم فقري.. فلا أكاد أبرح الدار حتى تبادر هي إلى اتخاذ الحيطة، حتى لا ينفذ الى البيت -أثناء غيابي- إنسان ينالنا منه أذى».

وعرفت «بيرونيللا» طرقات زوجها على الباب، فقالت لعشيقها: «والهفتاه يا جانيلو.. إنني هالكة لا محالة.. فقد رجع زوجي -عليه اللعنة- ولا أكاد أتصور لعودته سببًا، اللهم إلا أن يكون قد رآك وأنت تدخل الى البيت. ومهما يكن الأمر، فإني أستحلفك بالله أن تدخل في هذا البرميل، بينما أذهب أنا لأفتح الباب. ولسوف نري بعد ذلك ما وراء عودته المفاجئة هذه».

وبادر الرجل بالدخول في البرميل، بينما فتحت المرأة الباب لزوجها وهي مقطبة عابسة، وبادرته قائلة: «أيَّة نزوة تلك التي حدت بك الى العودة مبكرًا اليوم؟!.. بل إنني أفهم –إذ أرى أدواتك معك– أنك قد اعتزمت الكف عن العمل، فعلى أي شيء نعيش؟.. أتظنني سأدعك ترهن ثوبي على قلة ملابسي؟.. إنني لا أكف عن الغزل ليل نهار، حتى كادت أناملي تُبلى، ومع ذلك فإن كل هذا الجهد لا يكاد يكفي لإمدادنا بزيت للمصباح.. أيها الزوج.. ما من واحدة من الجيران إلا وهي تعجب منى وتضحك ساخرة مما أنوء به من عمل.. ومع ذلك، فها أنت ذا تعود ويداك في جيبيك، وكان يجب أن تكون الآن مُنهمكًا في عملك».

وراحت تبكي, وتولول، وتندب حظها قائلة: «ما أشقاني، وما أنحس الساعة التي وُلِدَت فيها، وما أتعس اليوم الذي التقيت بك فيه.. لقد كنت موشكة على الزواج من شاب يعرف كيف يعولني، ولكني رفضت يده من أجل مخلوق مثلك لا يعرف قيمة الزوجة الصالحة.. إن غيري من النساء يعشن في سعادة مع العشاق، بل إن لبعضهن من العشاق اثنين أو ثلاثة، ومع ذلك، فلو أن الواحدة منهن قالت أن القمر مصنوع من الجبن الأخضر، لآمن زوجها بقولها.. أما أنا، فامرأة ساذجة، لا أكترث لما تفعله سواي، وبسبب وفائي هذا ألاقي أسوأ معاملة. لست أدري ما يدعوني إلى أن لا يكون لي عشاق مثل غيري من النساء؟.. ألا فاعرف أنني تلقيت عروضًا من المال، والثياب الجميلة، والمجوهرات، قدمها لي كثير من الشبان النبلاء، ولكن ما من شيء من هذا استمالني. لا، فما رأيت أمي تفعل هذا

حتى أفعله, ومع هذا كله، ها أنت ذا تأتي إلى المنزل في وقت كان يجب أن تكون فيه منصرفًا إلى عملك».

وعندئذ أجابها زوجها: «لا تشغلي بالك يا عزيزتي، فلست جاهلًا لفضائلك، وخاصة بعد أن وجدت دليلاً آخر عليها في هذا الصباح. ولقد خرجت بالفعل لأشتغل، ولكن أحدًا منا لم يفطن إلى أن اليوم هو عيد القديس «جاليون» الذي يجب الاحتفال به، ولهذا عدت. ومع ذلك، فقد وجدت الوسيلة إلى إمدادنا بالخبز لمدة شهر؛ إذ بعت البرميل الذي تعرفين كيف يعوق طريقنا منذ زمن طويل.. بعته بخمسة دراهم إلى رجل أحضرته معي».

فقالت الزوجة: «هذا يزيد الأمر سوءًا، لأنك وأنت الرجل الذي يمضي في معترك الحياة، والذي يجب أن يفوقني علمًا بقيم الأشياء تبيع بخمسة دراهم ما بعته أنا منذ برهة —وأنا المرأة الجاهلة المسكينة رهينة البيت— بستة دراهم، تخلصًا منه، لما يشغله من فراغ كبير في الدار. لقد بعته لرجل طيب دخله في اللحظة التي أقبلت أنت فيها على الباب كي يتحقق من أنه سليم».

فلما سمع الزوج ذلك، استبد به السرور، وقال للرجل الذي جاء به: «يمكنك يا صديقي أن تنصرف لحالك، فها أنت ذا تسمع كيف بيع البرميل بستة دراهم، بينما رفضت أنت أن تدفع أكثر من خمسة».

وما إن انصرف الرجل، حتى قالت «بيرونيللا» لزوجها: «ولكن.. ما دمت أنت هنا الآن، فتول الاتفاق مع الرجل بنفسك».

وكان «جانيللو» ينصت بانتباه لما يجري بين الزوجين، فلما سمع كلمات المرأة الأخيرة خرج من البرميل مُتظاهرًا بأنه لا يعرف شيئًا عن الزوج، وصاح: «أين أنت أيتها السيدة الصالحة؟».. فتقدم الزوج وأجاب: «هأنذا.. ماذا تريد؟» فتساءل جانيللا: «ومن تكون أنت؟.. إنني أريد المرأة التي باعتني البرميل». وإذ ذاك قال الزوج الساذج: «في وسعك يا صاحبي أن تعقد معي الصفقة لأنني زوجها».

وقال جانيللو: «إن البرميل يبدو سليمًا، ولكنكم –على ما يبدو– كنتم تضعون فيه مادة تركت رواسب متيبسة في الداخل لم أقو على انتزاعها بأظافري. ولهذا لن أقبله إلا إذا نظفتموه». فقالت بيرونيبلا: «هذا لن يبطل الصفقة؛ إذ أن زوجي سيتولى تنظيفه لك في الحال».

فقال الزوج: «نعم.. نعم», وأنزل أدواته الحديدية عن ظهره، وخلع قميصه، وطلب شمعة مشتعلة ومكشطًا، ثم هبط إلى جوف البرميل حيث توافر على العمل. وأطلت «بيرونيللا» برأسها وأدلت إحدى ذراعيها في فم البرميل الضيق، مُتظاهرة بأنها تُشاهد ما يفعله زوجها بداخله، وأخذت تصيح: «اكشط هنا.. حك هنا.. ألا ترى تلك البقعة؟.. وهذه؟».

وبينما كانت توجهه هكذا في مهمته، قرر «جانيللو» أن يعوض ما فاته من متعة في الصباح، فأخذ يضم عشيقته وهي تطل من آن لآخر على زوجها لتوجهه. وأخيرًا، خرج الزوج من البرميل، وعندئذ قالت «بيرونيللا» لعشيقها: «خذ هذه الشمعة أيها الرجل الطيب، وانظر ما إذا كان البرميل قد نظف كما تحب».

فألقى العشيق نظرة على البرميل، ثم قال إنه راضٍ عنه كل الرضا, ودفع الثمن، ثم أمر بنقل البرميل إلى منزله. وهكذا نجا العاشقان بفضل.. برميل.

كيد.. وأي كيد؟!

تحول الملك إلى «لوريتا» عندما حان دورها، فشرعت تقول دون تلكؤ: «أواه، أيها الحب! ما أعظم تأثيرك الطاغي, وما أكثر تباين وسائلك وحيلك. أي فنان؛ بل أي فيلسوف يستطيع أن يبتكر مثل تلك الحيل والمخارج التي تُعلمها في لحظة لأولئك الذي يسلكون دروبك؟! كل وسائل التعليم الأخرى بطيئة إذا هي قورنت بأساليبك.. كما رأينا فيما سبق من قصص سأضيف إليها –يا سيداتي الكريمات– حيلة امرأة ساذجة، أقدمت على تصرف لا يملي مثله سوى الحب»:

كان يعيش في (اريتسو) يومًا، رجل غني يُدعى "توفانو"، حظى بزوجة رائعة الجمال تُدعى "مونا جيتا". ولكنه لم يلبث أن أصبح شديد الغيرة عليها فجأة، ولغير مبرر، الأمر الذي كدر خاطرها أشد الكدر، فمضت تسأله، وتلح في السؤال عن دواعي هذا الشك ، حتى إذا عجز عن إبداء سبب مُعين واحد، وأعياه تحديد ما يدعو إلى غيرته، عولت على أن تنغص عليه عيشته، متوسلة في ذلك بنفس الذنب الذي كان خليقًا بأن يُثير الشك والغيرة، والذي لم يخطر قط ببالها من قبل.

وكانت قد لاحظت أن ثمة شابًا من علية القوم يوليها اهتمامًا خاصًا، فعمدت إلى تشجيعه، حتى لم يبق أمامهما سوى أن تسنح الفرصة المناسبة لتنفيذ خطتهما. ولما كانت "مونا جيتا" قد لمست بين خصال زوجها

القبيحة سرعة انتشائه بالخمر، وشدة ابتهاجه باحتسائها؛ فإنها لم تكتف بأن شجعته على الإقبال عليها، وإنما راحت تغريه على الإفراط فيها. وبلغ من رضاء الزوج عن مسلكها هذا أن انساق لها، بحيث أصبح في وسعها أن تحمله على تناول الخمر متى راق لها، ثم تحمله – بعد ذلك– إلى فراشه حملًا.

وهكذا سنحت لها أول فرصة للاجتماع بعشيقها. ثم أخذا يلتقيان دائمًا بنفس الطريقة، وقد اعتمدت الزوجة كل الاعتماد على ما لزوجها من ميل إلى احتساء الخمر. ثم أخذت تُبالغ في هذا الاعتماد، حتى إنها لم تعد تقنع بإحضار عشيقها إلى المنزل، بل كانت تذهب كذلك إلى مسكنه –الذي لم يكن جد بعيد عن دارها– فتقضى الشطر الأكبر من الليل في رفقته.

واستمر ثلاثتهم –الزوج، والزوجة، والعشيق– يعيشون على هذا المنوال، إلى أن بدأ الزوج يلاحظ أن زوجته كانت تشجعه على الإسراف في تناول الخمر وهي لا تكاد تتذوقها.

ومن هنا بدأ يرتاب في أنها تحمله على الشراب بغية تحقيق أغراض خاصة لها خلال نومه.

ولكي يتأكد مما ساوره من ريب، تظاهر ذات مرة بأنه فاق في العربدة كل مخلوق. فلما رأت الزوجة منه ذلك، ظنت أنه تناول من الخمر قدرًا كافيًا لأن يثمله، وإنه لن يلبث أن ينام دون أن يقوى على تناول المزيد.

وما إن رأت عربدته تتحول إلى اضطراب واسترخاء، حتى حملته إلى

سريره، فأسلمته إليه، ثم أسرعت كعادتها إلى منزل عشيقها، فظلت هناك حتى منتصف الليل.

كان "توفانو" في تلك الأثناء قد نضا عنه تظاهره، حتى إذا تبين أن زوجته لم تأو إلى الفراش، نهض فأغلق الباب بالمزلاج، ثم جلس إلى النافذة يرتقب عودتها ليشعرها بأنه قد اكتشف ما كانت تفعله. وظل في مربضه حتى عادت الزوجة أخيرًا، فلما وجدت الباب مُغلقًا من الداخل بالمزلاج، عصف بها القلق، وحاولت أن تفتحه عنوة، ولكن محاولاتها المتكررة لم تفلح. ومكث "توفانو" صابرًا بعض الوقت، ثم قال لها: «إنك تتعبين نفسك بلا طائل –أيتها الزوجة– لأنك لن تدخلي هذا البيت ثانية؛ فعودي إلى حيث كنتِ تقضين وقتك, إنك لن تجتازي عتبة هذا الباب مرة أخرى قبل أن أريك –أمام أقاربك وجيرانك أجمعين– ما تفتقر إليه أساليبك من إدراك ودقة تدبير».

وراحت المرأة تتوسل إليه بحق السماء أن يفتح الباب، مؤكدة له أنها لم تكن حيث توهم، وإنما حملها طول الليالي، وعجزها عن النوم، وضيقها بالوحدة، على أن تذهب لزيارة امرأة من الجيران.

بيد أن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح, لأن الرجل كان قد عقد العزم على أن يشهد أهل المدينة كلها على العار الذي تجلبه عليهم زوجته بمسلكها، وقدر أن أحدًا لن يعرف شيئًا من ذلك الأمر، لو أنه سمح لها بدخول الدار. ولما وجدت أن توسلاتها لا تُجدي، عمدت إلى التهديد والوعيد فقالت: «إما أن تفتح لي الباب, أو أجعلك أتعس رجل ولدته

أمه». فسألها توفانو: «وبأية وسيلة تفعلين هذا؟» فاسترسلت تقول وقد أرهف الحب ذكاءها:

قبل أن أقاسي مثل هذا العار الذي ترمي إلى أن تصمني به ظلمًا وعدوانًا، سألقي بنفسي في هذه البئر، حتى إذا عثروا عليّ بعد ذلك، استنتج كل إنسان أنك أنت الذي فعلت بي ذلك في إحدى نوباتك المخمورة، ولا محيص بعد ذلك من أن تضطر إلى الهروب من بلدك، مخلفًا وراءك كل ممتلكاتك، وإلا قُضِيَ عليك بالإعدام لقتلك زوجتك.

ولما لم يؤثر فيه ذلك الوعيد، قالت: «إنني لا أستطيع أن أحتمل احتقارك لي أكثر من هذا، فلغفر الله لك أنك كنت سببًا في موتي».

وكان الليل حالك الظلام بحيث لم يكن في وسع أحدهما أن يرى الآخر دون عناء، فجرت الزوجة نحو البئر، ثم تناولت حجرًا كبيرًا كان مُلقى بجانبها، وصرخت بأعلى صوتها: «رب أغفر لي هذه الفعلة», ثم ألقت الحجر في البئر.

وأحدث الحجر ضجة شديدة، ما إن تناهت إلى سمع "توفانو"، حتى ظن أن زوجته ألقت بنفسها بالفعل في البئر، فتناول الحبل والدلو ثم جرى إلى الخارج لينقذ زوجته.

وكانت "مونا جيتا" قد توارت بجوار الباب، فلما رأته يتجه نحو البئر تسللت إلى المنزل على عجل، وأحكمت إغلاق الباب، ثم وقفت في النافذة، وراحت تُخاطب زوجها ساخرة: «ما هذا يا زوجي؟ إنما ينبغي أن تستخدم الماء أثناء الشراب، لا بعد أن تسكر».

فلما سمعها "توفانو" تهزأ به، وتضحك منه، عاد ليجد الباب موصدًا في وجهه بالمزلاج؛ فأخذ يتوسل إليها كي تفتح له، غير أنها غيرت نغمتها وأخذت تصيح فيه بأعلى صوتها: «أيها السكير العربيد المُشاغب, أقسم أنك لن تدخل الليلة: فقد بت لا أحتمل أفعالك الشريرة، ولسوف أشهد العالم كله أي إنسان أنت، وإلى أية ساعة تستمر في عبثك».

وأثار ذلك ثائرة «توفانو»، فراح يسبها بكل بذيء في اللغة، وهو يقيم عاصفة هوجاء.. فما لبث الجيران أن نهضوا من مضاجعهم على تلك الثورة العاتية، واتجهوا إلى نوافذهم يتساءلون عما جرى؛ فأخذت الزوجة تقول معولة: «إن هذا الشرير يعود مخمورًا في كل ساعة من ساعات الليل.. وقد تحملته طويلًا، وعبثًا حاولت أن أنصحه وأهديه سواء السبيل.. لذلك لم يعد أمامي سوى أن أجرب آخر وسيلة، فأفضح أمره – بأن أغلق الباب في وجهه– عسى أن يرتدع».

وأخذ "توفانو" –إزاء هذا– يروي لهم حقيقة ما جرى، ويُهدد زوجته بكل شدة وعنف، فقالت تُخاطب الجيران: «ها أنتم أولاء ترون أي صنف من الرجال هو.. بالله ماذا كنتم تقولون لو أنني كنت في الشارع بدلاً منه، وكان هو الذي في الداخل مكاني؟ أما كنتم تظنونه على حق فيما يدعي؟ إنني أتضرع إليكم أن تشهدوا كم هو لئيم، يزعم أنني فعلت ما قد فعله هو ظنًا منه أنه أفزعني عندما ألقى بشيء لا أدريه في هذه البئر، وليته كان قد ألقى بنفسه حقيقة، ليعب من ماء البئر بنفس اللهفة التي يحتسي بها الخمر».

وانضم إليها الجيران جميعًا، فألحوا على "توفانو" باللوم والتقريع، وأجمعوا على إدانته، ثم وجهوا إليه كلمات قاسية من أجل إساءته إلى زوجته.. وشاع الحادث في المدينة بسرعة، حتى سمع به أقاربها، فجاءوا كتلة واحدة يستفسرون من الجيران عن جلية ما جرى، ثم تكاثروا على "توفانو" فأوسعوه ضربًا، وذهبوا إلى المنزل فحملوا معهم السيدة وكل ما تملك، متوعدين الزوج بمزيد من العقاب.

وإذ تبين "توفانو" ما كان لغيرته من آثار سيئة، وكان لا يزال مُتعلقًا بزوجته، فقد طلب إلى بعض الأصدقاء أن يتوسطوا لديها في أن ترجع إلى بيته مرة أخرى، واعدًا بأن لا يرتد إلى غيرته بعد اليوم، وبأن يتركها تفعل في المستقبل ما تشاء، على أن تخفي عنه ما تفعله. وبهذا الثمن الباهظ اشترى "الجلف" الساذج صلحه مع زوجته، بعد كل الإيذاء الذي لاقاه.. فازدهر يا حب، ولتهلك الغيرة وأعوانها.

شجرة الكمثرى.. الساحرة

عندما جاء دور "بامفيلو"، قال:

«أعتقد أن ليس في الدنيا خطر أو صعب، لا يقدم على العاشق ركوبه في سبيل هواه؛ وهو ما شهدناه في عديد من القصص السابقة. ولكني أرى أن هذه الحقيقة ستزداد وضوحًا بهذه القصة التي سأرويها لكم، والتي تدور حول سيدة أوتيت من الحظ أكثر مما وهبت من العقل. على أنني لا أنصح أحدًا بأن ينهج نهجها، لأن الحظ لا يواتي كل امرئ بهذا القدر، ولأن كل الرجال ليسوا من العمي بالدرجة التي كان عليها زوجها»:

كان يعيش في (أرجوس) —إحدى مدن "أكايا" القديمة التي أُشتهرت بملوكها أكثر مما أُشتهرت بأغنيائها— سيد نبيل يُدعى "نيكوستراتوس"، حاباه الحظ في شيخوخته بزوجة كان حظها الوفير من الذكاء لا يقل عن نصيبها من الجمال، وتُدعى "ليديا" ، وكان قد أصبح مالكًا لضيعة مترامية الأطراف، وسيدًا لعدد كبير من الخدم، كما كان يقتني الكثير من الكلاب والصقور، ويشغف بكل ما يتيحه الريف من أسباب اللهو.

وكان بين خدمه شاب جميل يُدعى "بيروس"، على جانب موفور من الأخلاق الكريمة، اصطفاه سيده دون بقية زملائه ليضع فيه ثقته. فما لبثت الزوجة أن أحبته، وراح هواه يترعرع في فؤادها، حتى أصبحت لا تعرف السعادة إلا في صحبته. وسواء فطن الشاب إلى هذا الحب، أو إن شاء أن يتغافل عنه، فإنه لم يبد أي تجاوب له على الإطلاق؛ مما أثر في

نفسها، فعولت على أن تشعره بعواطفها، ولذا دعت إحدى خادماتها الأثيرات عندها -وتُدعى "لوسكا"- وقالت لها:

إن ما أغدقه عليك يا لوسكا من أفضال خليق بأن يجعلك مطيعة وأمينة معًا، ولهذا فحذار أن تفشي ما أفضي به إليك، إلا إلى الشخص المقصود بالذات. ها أنت ذي ترين أنني شابة جُبلت على المرح، موفورة الصحة والعافية، وأملك من الثروة ما يُهيّء لي الحصول على كل ما تحتاج إليه امرأة وبالإيجاز، هناك شيء واحد يحزنني، وهو أن زوجي بلغ من العمر عتيًا، مما يحرمني تلك الملذات التي من حقي أن أنعم بها. ولما كان الأمر كذلك، فقد اتجه رأيي منذ زمن بعيد إلى أنه لا ينبغي أن أكون عدوة لنفسي. وإذا كان القدر قد قسى عليّ بحيث منحني زوجًا في خريف العمر، فإن من حقي أن أسعى للحصول على بعض العزاء. ولكي أوفق ففي هذا توفيقي في غيره من الأمور، فإنني ركزت اهتمامي في "بيروس"، باعتباره أجدر إنسان بحبي. والحق أنني لا أحس الراحة إلا في صحبته، ولن أقوى على العيش بعد ذلك ما لم تتحقق أمنيتي في التمتع برفقته. فإذا كانت لي مكانة في نفسك، فدعيه يعرف مقدار حبي له بأحسن أسلوب تستطيعينه، وسليه باسمي أن يتفضل بمقابلتي هنا.

ووعدتها الفتاة بأن تساعدها، ثم انتهزت أول فرصة لتنتحي ببيروس جانبًا، وتفضي إليه برسالة سيدتها. وعجب الشاب لذلك أيما عجب؛ إذ لم تكن تراوده أية فكرة عن مثل هذا الحب.

وخشي أن يكون المقصود من ذاك هو مجرد اختبار أمانته، ولذا

أجاب بغلظة: «لا يُمكن يا لوسكا أن أتصور أن يقع ذلك من مولاتي، فحذار مما تقولين. وإذا كان هذا ما قالته فعلًا، فمن المستحيل أن تكون قد أمرتك بإفشاء سرها, وحتى لو سلمت بذلك، فإن ما أكنه من إجلال لمولاي لا يدعني أتطوع بانزال مثل هذا الأذى به.

ولهذا أمنعك من أن تسمعيني مزيدًا عن هذا الأمر», فأجابته "لوسكا" دون أن ترتبك حياءً من لهجته الجادة: «إنني يا بيروس سأردد دائمًا ما تأمرني به سيدتي أن أقوله، سواء أغضبك أم لم يغضبك. أما أنت فلست أكثر من حيوان لا قلب له».

ثم رجعت –وقد فاض وعاؤها بالغضب– إلى حيث كانت سيدتها في انتظارها؛ فكادت هذه تصعق لدى سماعها ما جرى.

وبعد بضعة أيام عادت السيدة تقول لخادمتها: «أنت تعرفين يا لوسكا أن ضربة واحدة لا يُمكن أبدًا أن تسقط شجرة البلوط، فاذهبي إذن مرة ثانية إلى هذا الذي يدّعي الوفاء على حسابي، وابلغيه حبي له بطريقة تُؤثر فيه، فهو قد يقضي على حياتي إذا ظل على عدم اكتراثه هذا، فضلًا على أنه ربما يتوهم نفسه موضعًا لخدعة أو دعابة، فيعمد إلى وسيلة خبيثة ينتقم بها لنفسه».

فطمأنتها الفتاة، ومضت إلى «بيروس» مرة أخرى. ولما وجدته بادي الانشراح، قالت له: «لقد أخبرتك منذ أيام بما تكنه لك سيدتي من تقدير، والآن جئت أؤكد لك أنك لو ظللت مُتمسكًا بنفس قرارك، فلن تطيق سيدتي الحياة. ولذا يجب أن تأخذ بما قلته لك، وإلا عددتك أكبر مغفل في

العالم بأسره. يا له من شرف أن تظفر بحب مثل هذه السيدة.

ألا تأمل ما يحبُوك به القدر؛ إذ يهبك امرأة غاية في الجمال، تجنبك شر الحاجات! من ذا الذي يصبح أسعد منك إذا أنت غلبت عقلك وبصيرتك؟ تصور إن كل ما قد يهفو إليه قلب طموح، سوف تظفر به أنت. افتح عقلك إذن لكلماتي، واذكر أن القدر من عادته أن يقبل علينا مرة واحدة في العمر، وهو مشرق الأسارير، مُحمل بالنعم العديدة، فإذا نحن أوليناه ظهورنا في هذه المرة، حق علينا أن نحمد الله إذا اقتصر الشر على أن نقضي بقية العمر في بؤس وشقاء. إنك تتحدث عن الشرف والوفاء، وهي دعوى لها قدرها بين الأصدقاء وحدهم. أما بالنسبة للخدم فإن عليهم –في مثل هذه الظروف– أن يأتمروا بما يريدهم سادتهم أن يفعلوه. ثم هل تتصور –لو كانت لك زوجة, أو ابنة, أو أخت أغرم بها مولانا هذا– إنه كان يتشبث بمثل هذه المصطلحات البراقة عن الواجب والوفاء كما تتشبث أنت الآن مع زوجته؟! لا يُمكن مُطلقًا أن تبلغ به الحماقة هذا الحد، بل ينبغي أن تعتقد أنه سوف يعمد إلى القوة، إذا لم ينله الإغراء غايته. فلنعاملهم إذن بمثل ما يعاملوننا به، ولتستغل إذن ما يهيئه القدر لصالحك. وثق أنك إذا رفضت، فسوف تندم حتى آخر يوم في حياتك.. هذا إذا غضضنا النظر عن موت السيدة كمدًا وحسرة».

وكان "بيروس" قد انتهى –بعد تفكير طويل فيما قالته من قبل– إلى أن يجيب إجابة مُغايرة، لو أنها جاءته مرة أخرى، فلم يعد يستنكر هذه الدعوة، بل رأى أن يستوثق أولًا من أن السيدة جادة في حبها، فأجاب: «أعترف لك يا لوسكا بأن هذا حق، ولكن مولاي بعيد النظر، وقد عد

إليَّ بتدبير كافة شئونه، ولهذا أخشى أن تكون سيدتي قد فعلت هذا لتسبر غوري وتختبر أمانتي فقط ، ولذا أحب أن تفعل أشياء ثلاثة كي تُبدد كل شك يُساورني، فإن هي نفذت ما أطلبه كنت في خدمتها بكليتي: أولها– أن تقتل أحب صقور مولاي أمام عينيه، وثانيها– أن ترسل لي خصلة من لحيته، وثالثها– أن ترسل لي سنًا من أسلم وأحسن أسنانه».

وخيل للوسكا أن هذه الشروط غاية في الصعوبة، ولكنها بدت لسيدتها أصعب بكثير، على أن الحب الذي يُعتبر خير من يمدنا بالعزاء، ويزودنا بأحسن الآراء، جعلها تبت في الأمر في الحال. فوعدته –عن طريق نفس الرسول– بأنها ستُحقق رغباته الثلاث بحذافيرها، بل أكثر منها.

إذ قالت أنه ما دام مغرورًا في حكمة سيده، فإنها تتكفل بأن يُؤكدا حبهما المتبادل بأجلى صورة في حضرة ذلك السيد بشكل يجعله يكذب ما تشهد به حواسه نفسها.

وأخذ "بيروس" ينتظر ليرى أي طريق قررت أن تسلكه، فلم تمض أيام قلائل، حتى أولم "نيكوستراتوس" وليمة كبيرة للترفيه عن أصدقائه كعادته دائمًا بين وقت وآخر.

ولم تكد الوليمة تنفض، حتى دخلت الزوجة إلى الردهة في أبهى زينة، وقد ارتدت ثوبًا من الحرير الأخضر، ثم مضت –في حضرة زوجها وجميع ثلته– إلى حيث يقبع الصقر، فأطلقته من وثاقه كما لو كانت تهم بأن تتناوله في يدها. ثم أمسكت به ودقت رأسه في الحائط.

وصاح نيكوستراتوس: «وا أسفاه.. ماذا فعلت يا عزيزتي؟». ولكنها

لم تأبه لصياحه، بل استدارت إلى السادة الحاضرين تقول: «ما كنت لأنتقم لنفسي من ملك يتعمد أن ينزل بي الضر، إذا أعوزتني الشجاعة الكافية لأن أقتص من صقر عديم القيمة. لتعلموا أن هذا الطائر قد حرمني كل ما تأمله الزوجات من أزواجهن من نعيم، فإن زوجي يستيقظ في الفجر ثم يمتطي جواده جريًا وراء هوايته الأثيرة عنده، في حين أنني أظل في فراشي وحيدة، منبوذة.

ولهذا السبب قررت منذ أمد بعيد، أن أقدم على هذه الفعلة، ولكنني كنت أنتظر الفرصة السانحة لتوفر مثل هذا العدد الكبير من القُضاة المنصفين، كما أتوسم فيكم».

وظن السادة الحاضرون أن ليس لدى "نيكوستراتوس" أسباب أخرى تدعوه إلى التشاحن مع زوجته، فضحكوا من قلوبهم، ثم استداروا إلى الزوج الذي تبدت عليه إمارات الانزعاج الشديد، وقالوا: «لقد أحسنت بالانتقام لنفسها من هذا الصقر».

وبعد قليل من الدعابة، انسحبت الزوجة؛ وإذ ذاك تبدل كدر الزوج، واستحال إلى نوبة من الضحك. ولما شاهد "بيروس" ذلك، قال في نفسه: «يا لها من بداية طيبة، فلتمكنها السماء من المثابرة».

ولم تنقض فترة طويلة –بعد قتل الصقر على هذه الصورة– حتى ساق القدر مصادفة هيأت للسيدة أن تنفذ ثاني شروط "بيروس"؛ إذ بينما كانت تلاعب زوجها في مخدعها، أخذ الزوج يجذب شعرها في رفق، مُداعبًا، فاستغلت الفرصة، وأمسكت بخصلة صغيرة من لحيته. وفيما كانت

تضحك في دلال، جذبت الخصلة بشدة ففصلتها عن ذقنه. واستاء الزوج لذلك أشد الاستياء، حتى هم بأن يتشاجر معها، لولا أن قالت له: «يحق لك الآن أن تعبس وتتجهم لمجرد انتزاع شعيرات من لحيتك، لأنك لم تشعر بما قاسيته أنا من ألم شديد عندما جذبتني من شعري منذ قليل».

وبين كلمة وأخرى –من الكلمات التي تبادلاها في مهاتراتهما– استطاعت أن تتحايل على إخفاء تلك الخصلة من لحية زوجها، ريثما تمكنت من إرسالها في اليوم ذاته إلى محبوبها.

على أن الشرط الباقي –والأخير– أسلمها إلى حيرة شديدة.. ولكن الهوى كان قد شحذ ذكاءها وأرهفه؛ فسرعان ما اهتدت إلى خطة تمكنها من غايتها. إذ كان لنيكوستراتوس في الدار وصيفان أسلمه إياهما والداهما –وكانا من علية القوم– ليربيهما أفضل تربية، ويبصرهما بآداب المجتمع. وكان أحدهما يضطلع بتقطيع اللحم له أثناء الطعام، في حين كان الآخر يتولى صب الخمر في كأسه.. فعمدت السيدة إلى الإيحاء لهما بما ألقى في روعهما أن لأنفاسهما رائحة كريهة، ونصحتهما بأن يديرا رأسيهما جانبًا كلما قاما على خدمته، وحذرتهما من أن يُفاتحا أحدًا –أيًا كان– بهذا الأمر، حتى لا يعيرهما أو يعرض بهما، فصدقها الوصيفان، وفعلا كما نصحتهما.

وبعد أيام، قالت السيدة لزوجها: «ألا تلاحظ مسلك وصيفيك وهما يقومان على خدمتك؟» فأجابها: «أجل لاحظته، وكثيرًا ما فكرت في أن أسألهما عن إيضاحًا».

وعند ذاك قالت: «إذن فوفر على نفسك العناء، لأن بوسعي أن أصارحك بما كتمته عنك طويلًا خشية إزعاجك وتكدير خاطرك. على أنني لم أعد أملك أن أكتم الأمر عنك، بعد أن لاحظه غيري. فالواقع أن لأنفاسك رائحة نتنة لا أدري لها سببًا؛ إذ أنها لم تكن من قبل كذلك. وإن بقاءها على ما هي عليه لأمر محرج، وممض؛ لأنك تجتمع بكثير من علية القوم، ولهذا سأجتهد في تخليصك من هذا العيب بوسيلة أو بأخرى».. فقال نيكوستراتوس: «وإلام يرجع هذا؟ هل من المحتمل أن تكون في فمي سن تالفة؟» فأجابت: «ربما كان الأمر كذلك».

واستدرجته إلى النافذة، فجعلته يفتح فمه، وبعد أن تفرست فيه بعناية، قالت: «أواه يا عزيزي! كيف صبرت على هذا طوال هذه المدة؟ ها هي ذي سن لا تبدو نخرة فحسب، وإنما هي تالفة كل التلف، ولو أنك أبقيت عليها في فمك بعد ذلك، فسوف تنقل عدواها إلى كل الأسنان التي بهذا الجانب. لذلك أنصحك بخلعها قبل أن تسوء الحال».. فقال الزوج الساذج: «إذا كان هذا رأيك، فإني أقرك عليه، فأرسلي فورًا في طلب طبيب يخلعها».

ولكن السيدة قالت: «لا تحدثني عن الأطباء، فأنا لا أوافق على الاستعانة بهم، ثم إن هذه السن تبدو في مكان يُمكنني من أن أخلعها بيدي. لقد بلغ الأطباء من الوحشية في مثل هذه الأمور، ما يجعل قلبي يشفق من تركك بين أيديهم؛ لذلك سأحاول أن أتولى ذلك بنفسي. وإذا شعرت بألم شديد، فسأخفف من قبضتي، وهو ما لا يفعله أولئك الأطباء».

وجاءت بأداة لهذا الغرض، وصرفت جميع من كانوا في الحجرة –عدا "لوسكا"– ثم أغلقت الباب، وحملت زوجها على أن يستلقي على منضدة، واختارت سنًا من أسنانه، وبينما كانت الخادم تشد وثاقه، راحت تذيقه ما لا يحتمل من الألم، ثم خلعت السن أخيرًا بكل عنف، وأسرعت تخفيها خلسة، وتُقدم سنًا أخرى كانت قد أخفتها في قبضتها من قبل، ثم قالت للرجل المسكين الذي كان شبه ميت: «ألا تأمل ما ظل في فمك زمنًا طويلًا؟».

وفي غمرة العذاب الأليم الذي جعله يئن، صدق ما قالته، وشعر بارتياح كما لو كان قد شُفي حقيقة، بعد أن خلعت له السن، ما لبث أن تناول بعض المسكنات، فخفف عنه الألم، وغادر الحجرة، وسرعان ما أرسلت السيدة السن إلى عشيقها، الذي اقتنع إذ ذاك بحبها، وأبدى استعداده لتنفيذ كل أوامرها.

ولكنها شاءت أن تمده بضمان جديد، وهي تشعر أن كل ساعة تمر دون أن تجمعهما أطول من دهر كامل، ومن ثم تظاهرت بأنها أُصيبت بمرض شديد، وذهب زوجها إلى مخدعها يعودها ذات مساء، وفي رفقته "بيروس"، فأبدت رغبتها في أن تهبط إلى الحديقة لتسري عن نفسها وطأة المرض.

وكان لابُد لتنفيذ رغبتها، من أن تعتمد على اثنين يسندانها من الجانبين، فأمسك "نيكوستراتوس" بإحدى ذراعيها، وأمسك "بيروس" بالأخرى، وقاداها إلى الحديقة حيث أجلساها فوق بقعة من الأرض

تكسوها الحشائش، وتقوم فيها شجرة من أشجار الكمثرى البديعة.

وكانت السيدة قد أوحت إلى "بيروس" من قبل بخطتها، فما إن جلس "نيكوستراتوس" إلى جانبها، حتى قالت بيروس: «إنني أشعر برغبة شديدة إلى الكمثرى، فهل لك أن تتسلق الشجرة فتأتيني ببعض ثمار منها؟».. وبادر "بيروس" إلى تسلق الشجرة, وأخذ يقتطف بعض الثمار ويلقيها إلى السيدة.

وفجأة صاح: «آه يا سيدي، ما الذي تقصد إليه؟ وأنتِ يا سيدتي، ألا تخجلين من أن تسمحي بهذا؟ أتظناني أعمى؟ لقد كنت يا سيدتي في أشد حالات المرض من برهة، فمن أين لك بالقدرة على ما تفعلين؟! أتراكِ شفيتِ بمثل هذه السرعة العجيبة؟ إذا كان الحب قد استبد بكما إلى هذا الحد، فما أكثر الحجرات الخاصة لديكما, ما أجدركما بأن تنعمان بلذتكما فيها، بدلًا من أن تُمارساها علنًا أمام عيني».

والتفتت السيدة إلى زوجها قائلة: «علام يتحدث بيروس.. إنه يحلم بلا شك». فصاح بيروس: «لا يا سيدتي.. لست أحلم.. أتظنان أني لا أستطيع أن أراكما؟».. ودهش "نيكوستراتوس" من أمر الخادم، فصاح به: «إنك ولا شك تهذي يا بيروس», ولكن الشاب أجاب: «لا يا سيدي.. ولا أنتما تهذيان.. لو دب في شجرة الكمثرى ما يدب فيكما الآن من انفعال عاطفي، لتعرت أغصانها في الحال».

فقالت السيدة: «ما معنى هذا؟ لو إنني في كامل صحتي لصعدت إلى الشجرة بنفسي لأشهد العجائب التي يزعم بيروس إنه يراها من فوقها».

وعاد "بيروس" إلى ترديد ما كان يقوله، حتى رغب إليه "نيكوستراتوس" في أن يهبط، ثم سأله عما رأت عيناه فأجاب: «لعلكما تحسبانني أبله، أو معتوهًا، أما وأنتم تجبرانني على الكلام، فاسمحا لي بأن أصارحكما بأنني رأيت سيدتي وسيدي متلاصقين. ورأيت السيد —وأنا أهبط— يتحول ليجلس في المكان الذي يقتعده الآن».

فقال نيكوستراتوس: «لقد اختبل عقل الرجل ولابُد لأن أحدًا منا لم يتحرك من مكانه الذي اتخذه منذ البداية».

على أن بيروس عاد يقول: «أؤكد لكما أنني رأيت المنظر الذي وصفته».. فاستبدت الدهشة بنيكوستراتوس وقال: «إذا كان من يتسلق الشجرة يرى مثل هذه العجائب، فلابُد أنها مسحورة.. ولا بُد أن أتسلقها لأتبين بنفسي».

وأسرع يتسلق الشجرة، فما إن بلغ قمتها، حتى أقبل "بيروس" والسيدة على مجونهما دون أن يضيعا وقتًا.

وشاهد "نيكوستراتوس"ما كانا يفعلان؛ فصاح بأعلى صوته: «ما الذي تفعلينه أيتها المرأة الخليعة؟ ومع من؟ مع بيروس الذي أوليته كل ثقتي؟!».

وتهيأ للنزول، فواتاه صوت السيدة وعشيقها وهما يردان عليه: «إننا نجلس هنا، لم نبارح مكانينا».

وفيما كان يهبط عن الشجرة، عاد العشيقان إلى مجلسيهما اللذين كانا فيهما من قبل، وراح الزوج يؤنبهما في عنف، رغم أنه وجدهما بعيدين

عما يريب، بينما أخذ "بيروس" يقول: «الآن فقط اقتنعت يا سيدي بأنني كنت واهمًا فيما رأيت من فوق الشجرة.. تمامًا كما صور لك الوهم. إنني لا أجرؤ على أن أقول أنك أخطأت، ولكن كل ما أرجوه منك، هو أن تراجع نفسك وتسألها: أيمكن أن تفكر زوجتك —وهي أعف النساء وأوفرهن عقلًا— في أن تحاول الإقدام على مثل هذه الفعلة.. وعلى مرمى بصرك؟ أما أنا، فأوثر أن تمزق ضلوعي، واحدًا بعد الآخر، قبل أن يُساورني هذا الأمر في نطاق الفكر، فما بالك بارتكابه في حضرتك؟ لابُد إذن من أن الذنب في هذا المنظر الزائف يرجع إلى الشجرة ذاتها. وما كان العالم كله ليزحزحني عن يقيني بأنني شاهدتك وسيدتي معًا على تلك الحال التي خلتنا عليها، لولا قولك الآن إننا تراءينا لك على هذه الصورة ذاتها».

وإذ ذاك، قالت الزوجة بصوت يفيض دفئًا: «أتحسب إنني —مهما يبلغ بي الانحلال الخلقي— أكون من الحماقة والسفه، بحيث أرتكب هذه الأمور أمام عينيك؟ كلا، كلا.. لو شئت أن أفعل مثل ذلك لفعلته في حجرة خفية، دون أن أدع لك سبيلًا للعلم به».

وأخيرًا.. صدق "نيكوستراتوس" ما قالاه، فهدأت ثائرته هونًا، وراح يتحدث عن طرافة الحادث وغرابته، بينما تظاهرت السيدة بالقلق لسوء الظن الذي استقر في نفسه من ناحيتها، فقالت: «يجب أن لا تكون هذه الشجرة سببًا في فضيحة أخرى تقع لي أو لأية امرأة أخرى.. اجر يا بيروس وأحضر فأسًا، وانتقم لنا بقطع هذه الشجرة، وإن كنت أفضل أن تنزل هذه الفأس على رأس زوجي الضعيف، عقابًا له على تصديق عينيه فيما لا يقره ذوق ولا يقبله عقل».

وفي الحال، أحضر بيروس فأسًا قطع بها الشجرة. وعندئذ قالت لنيكوستراتوس: «لقد تبدد غضبي الآن؛ إذ رأيت خصيمة شرفي تجتث على هذه الصورة», فطلب إليها أن تصفح عنه، ففعلت عن طيب خاطر، ولكنها حذرته من أن يداخله مثل هذا الظن الآثم من ناحيتها في المستقبل، وهي التي تحبه أكثر من حبها لحياتها.

وهكذا عاد الزوج المخدوع إلى الدار مع زوجته و"بيروس". وفي تلك الدار، كثيرًا ما تهيأت للعاشقين فرص اللقاء، في جو ممتع يفوق الجو الذي اجتمعا فيه تحت شجرة الكمثرى.

الذئب.. ذئب الظلام

طلبت الملكة قصة من "بامفيلو"؛ فشرع هذا يُمهد لها بقوله: «لقد خطرت ببالي، أيتها السيدات الجليلات، قصة تُبين كيف أن حضور ذهن سيدة عاقلة حال دون وقوع فضيحة شنيعة.. وسأرويها لكن فيما يلي»:

كان يعيش في سهل (منيون) – منذ زمن غير بعيد– رجل طيب، أمين، يملك فندقًا صغيرًا أعده لراحة المسافرين والترفيه عنهم، فكان يُقدم لهم فيه اللحوم والشراب، مقابل ما يقدمون له من مال ، ولكنه كان نادرًا ما يأوي أحدًا منهم في النزل، أو يسمح له بالمبيت، ما لم يكن يعرفه تمام المعرفة.

وكانت للرجل زوجة طيبة، ذات حُسن وملاحة، أنجبت له طفلين، كان أحدهما –عند بدء قصتنا– صغيرًا، لم يفطم بعد، أما ثانيهما، فكان فتاة جميلة في نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، لم تتزوج بعد، ولكنها أولعت بشاب من علية القوم في مدينتنا، كان كثير الترحال في الطريق الذي يقع عليه الفندق. وكانت الفتاة مزهوة بهذا الحبيب، تحاول برشاقتها وجمال قوامها أن تحتفظ بتقديره لها، وإعجابه بها.

وما لبثا أن تبادلا الحب، وكان غرامهما هذا كفيلًا بأن يؤتي عدة ثمار، وأن يمتعهما بما كانا يشتهيان، لولا أن "بينوكيو" –وهذا هو اسم الشاب النبيل– تحاشى جاهدًا ذلك الإثمار، حرصًا منه على سمعة الفتاة وسمعته.

على أن حبه كان يزداد ضراها يومًا بعد يوم، حتى عول في النهاية

على أن يقضي ليلة كاملة في نزل والد الفتاة، عساه أن يبلغ ما كان يكتوي من أجله، وأن ينال وطره دون أن يكشف أحد سرهما.

وما لبث "بينوكيو" أن أفضى بسر قراره هذا إلى صديق له يُدعى "أدريانو"، كان مُطلعًا على أمر غرامه، ومن ثم استأجر الاثنان جوادين —ذات ليلة— وأردفا حقائبهما خلفهما، بعد أن ملآها بأشياء عديمة القيمة، وغادروا (فلورنسا). وبعد جولة تعمدا القيام بها، وصلا إلى سهل (منيون) في ساعة متأخرة من الليل. وهناك، وجها جواديهما شطر الاتجاه الذي يُوحي بأنهما قادمان من مقاطعة (روماني)، ثم تقدما إلى الخان، فقرعا بابه.

وخف صاحبه مُسرعًا إلى تلبية الطرقات؛ إذ كان دائمًا مُتأهبًا لخدمة نزلائه. وعندما فتح لهما الباب، خاطبه "بينوكيو" قائلًا: «نرانا مضطرين، أيها الرجل الأمين، إلى أن ننشد عندك مأوى لليلتنا؛ إذ إننا كنا نسعى للوصول إلى (فلورنسا)، ولكننا أخطأنا التقدير، وقد تأخر الوقت كما ترى».

فأجاب الفندقي: «ما أحسبكما، أيها السيدان، إلا مُدركين مدى عجزي عن توفير أسباب الراحة لنبيلين مثليكما، على إنني لا أملك —وقد جئتما في ساعة متأخرة، والوقت لا ينفسح أمامكما لاستئناف الرحيل— سوى أن أبذل قصارى وسعي للترفيه عنكما».

وإذ ذاك هبطا عن جواديهما، فدخلا الخان، وكانا قد أحضرا معهما مؤونتهما، فجلسا إلى العشاء، ودعوا مضيفهما إلى أن يشاركهما، ولم يكن بالنزل سوى حجرة واحدة صغيرة أقيمت بها ثلاثة أسرة، اثنان منها في

جانب، والثالث في الجانب المقابل، ولم يكن بين هذه الأسرة من الفراغ ما يكاد يكفي لمرور إنسان بينها، فأمر صاحب الخان بأن يعد للسيدين أقل الأسرة الثلاثة سوءًا، ثم ظل قائمًا على خدمتهما حتى أسلمهما إلى الفراش.

وتريث الرجل فترة من الزمن، ثم دعا ابنته إلى أن تنام في أحد السريرين الباقيين، وأوى وزوجته إلى السرير الآخر، وأعدت الزوجة مهدا لطفلها الرضيع إلى جوار سريرها. ولم يكن الشابان قد ناما بعد، وإن تظاهرا بالاستغراق في النعاس.

وأخذ "بينوكيو" يرقب كل هذه التدابير في عناية واهتمام، حتى إذا رأى أن الوقت ملائم، وأن الجميع قد استغرقوا في النوم، نهض بخفة إلى فراش الفتاة ورقد إلى جانبها، فتلقته الفتاة مغتبطة —رغم شدة خوفها— وهكذا نعما ما شاءا بالوصال.

وحدث —في تلك الأثناء— أن أوقعت إحدى القطط شيئًا في المنزل، فاستيقظت الزوجة. وخشيت أن يكون في الأمر ما لا يدعو للاطمئنان؛ فنهضت في الظلام، ومضت تستبين سبب هذه الضجة، ونهض "أدريانو" مصادفة في ذلك الوقت ليقضي حاجة، فلما عثر بالمهد في طريقه، أزاحه —دون قصد— إلى مقربة من سريره.

وبعد أن قضى ما نهض من أجله، رجع إلى فراشه مرة أخرى دون أن يرد المهد إلى مكانه الأول؛ وإذ اطمأنت المرأة إلى أن ما سقط لم يكن ذا بال، طردت القطة، دون أن تتعب نفسها بإضاءة عود ثقاب، ثم عادت

إلى الفراش الذي ينام فيه زوجها، فلما لم تجد المهد، قالت في نفسها: «يا إلهي.. كدت أرتكب غلطة شنيعة، فأذهب إلى سرير الضيفين».

وتلمست طريقها في الظلام حتى عثرت على المهد بجوار "أدريانو" — الذي حسبته زوجها— فصعدت إلى الفراش ونامت بجانبه. وكان الشاب لا يزال مُستيقظًا، فعاملها برفق ولطف دون أن ينطق طوال الوقت بحرف واحد، حتى لا تنكشف الحقيقة للمرأة.

وأخيرًا.. خاف "بينوكيو" أن يستغرق في النوم، فيفاجأ مع عشيقته، بعد أن أفاد من وقته معها على خير ما يشتهي؛ فتركها ليعود إلى فراشه. وإذ ذاك اعترض المهد طريقه، فظن أن السرير المُجاور له سرير المضيف، وابتعد عنه قليلًا، ليندس بالفعل في فراش المضيف، الذي استيقظ في الحال. وظنه "بينوكيو" صديقه، فقال له: «أؤكد لك أن لا شيء ألذ وأمتع من "نيكولوسا"، وأن رجلًا لم يسعد بمثل ما سعدت به معها.. بل أؤكد لك أنني —منذ تركتك— كنت في سلسلة من اللذات».

سمع المضيف ذلك، فلم يرتح إلى الحديث، وقال في نفسه أولًا: «بحق الشيطان.. ما الذي يعينه هذا الرجل؟».. حتى إذا تغلب انفعاله وغضبه على حكمته، صاح: «إنك لشر الأوغاد جميعًا إذ تستغفلني على هذه الصورة، ولكني أقسم بالله أن أقتص منك».

ولم يكن "بينوكيو" على درجة خارقة من الذكاء، فلما تبين غلطته، لم يُفكر فيما يجب عليه أن يفعله لتدارك الأمر، وإنما أجاب: «تقتص مني؟ وماذا في وسعك أن تفعله؟».. وهنا قالت الزوجة لأدريانو، وهي تعتقد أنه

زوجها: «وا أسفاه.. ألا تسمع ما يقوله ضيفانا؟ عم يتحدثان يا ترى؟» فأجابها هذا ضاحكًا: «دعيهما يقولان ما يحلو لهما.. أو لينفلقا.. لعلهما أفرطا في الشراب في الليلة الماضية».

وهُنا تبينت الزوجة الفرق بين الصوتين، فلما سمعت "أدريانو" يحدثها، أدركت في الحال أين كانت تنام.. ومع من.. فبادرت دون أن تنطق بحرف واحد إلى مغادرة الفراش في حكمة وحذر بالغين، ثم أزاحت المهد –برغم ظلام الحجرة– إلى أقرب ما تستطيع من سرير ابنتها، كما قدرت، وتسللت إلى جوار الفتاة.

ثم تظاهرت بأنها قد استيقظت على صوت زوجها، فنادته تسأله عما جرى بينه وبين السيد الضيف فأجابها: «ألا تسمعين ما يقول أنه أتاه الليلة مع ابنتك؟».. فرددت قائلة: «إنه يكذب فيما يدّعيه، لأنه لم يكن في فراشها أبدًا، وإنما أنا التي كنت نائمة معها. وأؤكد لك إنني لم تغمض لي عين بحال، بل إنك لتكون أحمق الأغبياء، إذا ظننت غير ذلك. كل ما هناك أنك أفرطت في الشراب عند العشاء بحيث بت تهذي طوال الليل، وتسير هنا وهناك دون أن تدري شيئًا، وإن توهمت أنك تأتي بالعجائب. وكم يؤسفني أن لم تنقصم رقبتك جزاء إفراطك في الشراب.. ثم، ما الذي يفعله السيد "بينوكيو" في سريرك؟.. لماذا لا ينام في فراشه؟».

وأدرك "أدريانو" –من الجانب الآخر– أن المرأة الطيبة وجدت وسيلة غاية في المكر والدهاء لإنقاذ نفسها وابنتها, فقال من ناحيته: «ألم أقل لك يا بينوكيو مائة مرة، إن ليس لك أن تنام خارج منزلك على الإطلاق، لأن

عيبك الملعون —سواء سيرك في نومك أو رواية أحلامك على أنها حقيقة— لا بد أن يعود عليك بالوبال في يوم من الأيام.. تعال هنا.. من فضلك».

إذ ذاك، نهض "بينوكيو" وهو يتظاهر بأنه ما زال نعسان، وذهب إلى "أدريانو"، فنام إلى جواره.

وفي الصباح، ضحك صاحب الخان من كل قلبه، وأخذ يمطر "بينوكيو" بالنكات، ويتندر في سخرية بأحلامه، وهكذا رأوا جميعًا ينتقلون من موضوع مرح إلى آخر، بينما كان الجوادان يعدان للرحيل، والحقائب تُشد إليهما، وشرب الشابان نخب الوداع مع صاحب الخان، ثم امتطيا جواديهما، ورحلا إلى فلورنسا، وسرورهما لما جرت به الأمور لا يقل عن سرورهما بالطريقة التي قضيا بها لبانتهما.

ووجد "بينوكيو" —بعد ذلك— وسائل أخرى للقاء "نيكولوسا" التي ما زالت تُؤكد لوالدتها إنه كان يحلم في نومه، في حين أن هذه ما زالت تذكر كيف نعمت مع "أدريانو"، بل إنها تعتقد أنها المخلوق الوحيد الذي كان مستيقظًا في تلك الليلة.

اليوم الثامن

زواج.. على المشاع

اختارت "لوريتا" – ملكة اليوم الثامن– حيل النساء على الرجال، وحيل الرجال على النساء، وحيل الرجال على الرجال، موضوعًا لقصص ذلك اليوم. فلما حان دور "فياميتا"، مهدت لقصتها قائلة:

«سأروي لكن، أيتها السيدات الحسان، قصة شاب تلقى إيذاء في لطف يفوق لطف خلقه، ورده في اعتدال وترفق. ومن هذا تتعلمن أن المرء خليق بأن يكون راضي النفس إذا هو عامل الناس بمثل ما يعاملونه به من خير، وأن يتورع عن الحقد والانتقام الذي لا مبرر له، والذي يتجاوز ما قد يستحقه الإيذاء الذي أصابه»:

كان يعيش في (سيينا) – على ما بلغني– شابان مثريان، يُدعى أحدهما "سبينلوتشيو تانينا"، ويُدعى الثاني "زيبا دي مينو", وكانا جارين متقاربين في شارع يُسمى كاموليا، وقد ربط بينهما ود توطد حتى فاقت صلاتهما صلة الأخوة الأشقاء، وكانا متزوجين، وقد أوتي كل منهما زوجة غاية في الحسن والجمال.

وحدث أن أكثر "سبينلوتشيو" من التردد على دار "زيبا"، في وجود هذا وفي غيابه على السواء، فما لبثت الألفة أن اشتدت –في النهاية– بينه وبين زوجة صديقه. واستمر ودهما فترة طويلة دون أن يفطن إليه أحد. إلى

أن كان ذات يوم، و"زيبا" في المنزل دون أن تدرك زوجته، وإذا بسبينلوتشيو يفد للسؤال عنه، فلما أنبأته الزوجة بأنه قد خرج, دلف الشاب إلى حيث كانت تجلس في البهو وحدها، وتبادلا القبلات في وجد وصبابة.

فظل "زيبا" متربصًا دون أن ينبس بكلمة واحدة، في ارتقاب ما قد يسفر عنه ذلك الموقف، وإذا الاثنان يأويان إلى المخدع، والهوى يستخفهما، ثم يوصدان الباب خلفهما.

واستبد الحزن بالزوج، بيد أنه كان يعلم أن الضجة لن تُخفف من الضر الذي لحق به شيئًا، وإنما هي قد تُضاعف عاره وخزيه؛ لذلك أنشأ يفكر في وسيلة يثأر بها لنفسه إلى الحد الذي يرضيه، دون أن يثير صخبًا خارج نطاق داره. حتى إذا انتهى أخيرًا إلى رأي، مضى إلى المخدع –بعد أن انصرف صديقه– فلما وجد زوجته تسوي غطاء رأسها سألها: «ماذا تفعلين يا سيدتي؟».. وإذ أجابته: «ألست ترى ما أفعل؟».. قال: «بلى.. الواقع إنني رأيت أكثر مما كنت أود».

وواجهها بالاتهام، فلما وجدت أن الإنكار لن يُجدي، أدلت إليه باعتراف صريح، وراحت تبكي وتتضرع إليه أن يغفر لها، وعند ذاك قال لها: «أحسبك تدركين أنك ارتكبت أشنع جريمة، فإذا كنتِ تطمعين في أن أغفرها لكِ، وجب عليكِ أن تعقدي العزم على أداء ما سوف أطلب إليكِ أداءه.. وهو أن تسألي "سبينلوتشيو" أن يلتمس حجة يتعلل بها لتركي، في الساعة التاسعة من صباح غد، ليأتي إليكِ ، فإذا جئت أنا إلى البيت بعد

ذلك، وبمجرد أن تسمعي ما يُنبئ بحضوري، فاحمليه على أن يدخل في هذا الصندوق، ثم أغلقيه عليه بالمفتاح.. وبعد أن تفعلي هذا، سأطلعك على ما تبقى من خطتي، على أن يجب أن لا تستسلمي للهواجس والشكوك بصدد ما تبقى؛ إذ أعدك أنني لن ألحق به أي أذى».

وقبلت الزوجة أن تفعل ذلك، فلما كان اليوم التالي، جلس الصديقان معًا في الصباح، فلما حان الموعد الذي كان "سبينلوتشو" قد وعد السيدة بأن يوافيها فيه، قال لزيبا: «إنني على موعد مع صديق وعدته بأن أزوره لأتناول الغداء معه، ولست أحب أن يطول انتظاره لي.. فاستودعك الله».

وقال زيبا: «ولكن، ما زال هناك متسع من الوقت قبل أن يحين موعد الغداء». فرد الآخر قائلًا: «أجل، ولكن لدينا عملًا نُريد أن نتحدث بصدده، مما يقتضيني أن أكون هناك قبل موعد الغداء بوقت كاف».

وهكذا غادر «سبينلوتشيو» صديقه؛ فدار في الطرقات دورة قصيرة، ثم مضى إلى السيدة، وسرعان ما أغلق الاثنان على نفسيهما حجرة النوم، ولكن «زيبا» ما لبث إن جاء؛ وإذ ذاك تظاهرت السيدة بالفزع الشديد، وحملت عشيقها على أن يلج الصندوق –كما كلفها زوجها–, ثم أغلقت هذا الصندوق بالمفتاح، وخرجت بعد ذلك إلى زوجها الذي بادرها مُتسائلًا عما إذا كان الغداء قد أُعِدَ، فأجابته: «سأعده حالًا».

وهنا قال لها: «حسنًا.. لما كان سبينلوتشيو مزمعًا أن يتناول الغداء لدى صديق له، وقد خلف زوجته في الدار وحدها، فهلا ناديتها من

النافذة، ودعوتها إلى الحضور لتشاركنا الغداء؟ وأطاعته لفورها خوفًا على نفسها، وما لبثت زوجة «سبينلوتشيو» أن أقبلت بعد إلحاح شديد حسمه أن سمعت أن زوجها لن يتناول غداءه في البيت.

وأظهر «زيبا» لزوجة صديقه كل ما كان يُمكن أن تتصوره من ود ولطف، ثم أشار إلى زوجته بأن تمضي إلى المطبخ. وما لبث أن أمسك بيد زوجة صديقه، فقادها إلى حجرة النوم، وأغلق الباب خلفهما. وإذ رأت السيدة ذلك، تحولت إليه قائلة: «واحسرتاه.. ما الذي تنوي عمله يا سيدي؟.. أهذا ما دعوتني إليه؟.. أهذا هو الوفاء الذي تكنه لصديقك؟!».

واذ ذاك اقترب «زيبا» من الصندوق الذي احتبس فيه زوجها، ثم عانقها وضمها إليه بشدة، وهو يقول: «قبل أن تُبدي أي شُكاة أو تذمر يا سيدتي، أرجو أن تنصتي إلى ما سوف أخبرك به، لقد أحببت زوجك كما لو كان أخًا لي، ولكنني اكتشفت أمس إنه -وإن لم يعرف بعد بافتضاح الأمر- قد تمادى في هذا الود، إلى حد أنه بات يُعامل زوجتي كما لو أنها كانت أنتِ نفسك.. وبما إنني ما زلت أقدره كثيرًا، فقد عولت على أن لا أذهب في انتقامي إلى أكثر مما يتناسب ونوع الأذى الذي ألحقه بي.. فإذا كان قد نال متعته من زوجتي، فكذلك أعتزم أن أنال متعتي منك.. أما إذا لم ترضخي لهذا، فثقي بأنني سأثأر لنفسي بطريقة تخلق لكِ وله سببًا لندم شديد».

فقالت السيدة: «إذن ، لا بأس, وإذا كان ثأرك سيحيق بي وحدي،

فخليق بي أن أتقبله وأنصاع لك، ولست أرجو سوى أن تعمل على أن تصلح بيني وبين زوجتك فتغفر لي هي ما سوف أقدم عليه، بمثل ما أنا مُستعدة لأن أغفر لها ما فعلت».

وتعهد «زيبا» بأن يحقق رجاءها، كما وعد بأن يهديها جوهرة غالية.. وعلي ذلك، حملها على أن تستلقي علي الصندوق، وأخذ يثأر لنفسه.. وكان «سبينلوتشيو» يكاد ينشق غيظًا وهو يصغي لما كان يجري فوق رأسه.. ولو لم يمنعه الخوف من زيبا، لثار على زوجته ثورة صاخبة –رغم أنه كان حبيس الصندوق– ولأطلق عقيرته بسببها وتحقيرها.

على أنه ما لبث أن أعاد النظر في الأمر، فأدرك إنه كان البادئ بالظلم والعدوان، وأن لزيبا الحق فيما كان يفعله.. بل سَلِمَ بأن «زيبا» عامله معاملة الصديق الودود، ومن ثم رأى أنه خليق بأن يُضاعف من احترامه له.

وعندما فرغ «زيبا» والسيدة من فعلتهما نهضا, وطلبت السيدة الجوهرة التي وعدها بها؛ فنادى «زيبا» زوجته التي ألمت بالموقف لأول وهلة، فلم تملك سوى أن تقول: «الآن أصبحنا يا عزيزتي سواء.. لا ظالم ولا مظلوم».. وتهللت أساريرها بالابتسام. وإذ ذاك، قال لها زيبا: «إذن، فافتحي هذا الصندوق».. ولبت الأمر لفورها.. وهنا، دعا «زيبا» زوجة «سبينلوتشيو» لترى زوجها. ومن العسير أن نُبين هنا –أي الزوجين كان أشد كمدا وارتباكا: أهو الرجل الذي رأى صديقه وهو مدرك أنه كان مُحقًا فيما فعل؟ أم هي المرأة إذ رأت زوجها، وهي موقنة من أنه ولابُد قد سمع

ما جرى فوق رأسه؟

وما لبث «زيبا» أن استأنف الحديث قائلًا للسيدة وهو يشير إلى زوجها: «هذه هي الجوهرة التي وعدتك بها، وها أنذا أهديها إليكِ».

وإذ ذاك، خرج «سبينلوتشيو» من جوف الصندوق، وقال لصاحبه: «لقد أصبحنا الآن متساويين يا زيبا .. وخير لنا –كما سمعتك تقول لزوجتي– أن نظل صديقين.. ولما كان لا يُفرق بيننا سوى زوجتينا، فإنني لا أرى من حل عادل سوى أن نجعلهما منذ اليوم.. «على المشاع بيننا».

وقبل صديقه هذا الحل، فتناول الأربعة غداءهم معًا في وئام.. ومنذ ذلك الحين، أصبح لكل من الزوجتين زوجان, ولكل من الزوجين زوجتان، دون ما غيرة أو شحناء.

اليوم التاسع

عاشق.. في الأكفان

بدأ تاسع «الأيام العشرة» تحت حكم «ايميليا»، فتركت لكل من الرواة حرية اختيار الموضوع الذي يروق له أن ينسج قصته حوله ، ورمقت الملكة «فيلومينا» بنظراتها، ثم أمرتها أن تبدأ قصص اليوم.. فابتسمت هذه، وبدأت تمهد لقصتها قائلة:

«إذا كان مما يروق لمولاتي أن أكون البادئة، فيسرني حقًا أن ألقي بالسهم الأول في هذا الميدان المُترامي، الذي لا حدود له.. ميدان القصص غير المعينة الموضوع. ولست أشك في أنني إذا أحسنت، فسوف يحذو من يعقبونني حذوي، أو يفوقونني. لقد طالما تجلى في قصصنا مدى قوة الحب وسلطانه القاهر، ولكني لا أحسب أن هذا المورد ينضب، ولو اقتصرنا على ارتياده وحده، من أول العالم إلى آخره.. ذلك لأن الحب اعتاد أن يقود العشاق، لا إلى الأخطار المُميتة فحسب، وإنما إلى مساكن الموتى ذاتها أيضًا. وإني لأعتزم أن أضيف إلى ما سبقت روايته قصة نرى خلالها – إلى جانب سلطان الحب– كيف استطاع دهاء إحدى السيدات أن يُمكنها من التخلص من عاشقين كانت قد سئمت غرامهما»:

عاشت في مدينة (بيستويا) –في زمن مضى– أرملة من أجمل النساء، تدله في هواها اثنان من نزلاء المدينة، يُدعى أحدهما «رينوتشيو باليرميني»،

والآخر «اليساندرو كيارمونتيزي» ، وكانا قد وفدا على (بيستويا) منفيين من (فلورنسا). وافتتن كل منهما بالأرملة الحسناء، دون أن يدري شيئًا عن افتتان الآخر بها، ودون أن يطلعه على حاله معها.

وضاقت الأرملة، وكانت تُدعى «فرانشيسكا دي لاتساري» بملاحقاتهما لها، فأنصتت في النهاية إلى تضراعات كل منهما ورغباته، وهي تتعجله وتستحثه على الاقتضاب. ومع أنها مالت لأن تستجيب للاثنين معًا، إلا أنها لم تجد لذلك سبيلًا. ومن ثم خطر لها –آخر الأمر– أن تسأل الاثنين خدمة «صغيرة» كانت واثقة من أنهما لن يؤدياها، رغم أنها مما يُمكن أداؤه. ورأت أن عدم استجابتهما إذ ذاك، سيتيح لها حجة عادلة كي تشيح عنهما وتقصيهما عنها.

فقد صادف في نفس اليوم الذي خطرت للسيدة فيه فكرة التخلص من عاشقيها، أن دُفِنَ في كنيسة «الكوردليير» –في «بيستويا»– رجل اشتهر، رغم عراقة أصله وطيب منبته، بأنه من أنذل أشقياء الأرض وأكثرهم شرًا، كما كان فوق ذلك مشوه الخلقة بدرجة كانت تجعل الذين لا يعرفونه يرتجفون في ذعر وجزع، إذا ما وقعت عليه أبصارهم للمرة الأولى.

ورأت «فرانشيسكا» أن هذه المصادفة تُلائم تمام الملاءمة الخطة التي عولت عليها. ومن ثم دعت إليها وصيفتها وقالت لها: «إنكِ لتعلمين ما ألاقي على أيدي هذين الفلورنسيين من بلاء وعناء، وقد أستقر عزمي أخيرًا على أن لا أكون لأي واحد منهما. ومن ثم فقد اعتزمت –لكي

أقصيهما عني– أن أبلوهما في أمر، أثق كل الثقة من أنهما سوف يرفضان القيام به، وسأرويه لك الآن. فأنت تعلمين أن الشقي «اسكناديو» الذي كان مبعث خوف ورهبة لمعظم الناس في حياته، قد دفن هذا الصباح في كنيسة الرهبان الصغار، فاذهبي إذن –في السر– إلى «اليساندرو»، وقولي له أن سيدتك قد أمرتك أن تنبئيه بأن الوقت قد آن لأن يحظى بحبها ويطمئن إليه، ومن ثم ففي وسعه أن الوقت قد آن يفد علي مخدعها، ولكن بالطريقة التالية:

إن أحد أقاربها يعتزم –لسبب سيعرفه «اليساندرو» فيما بعد– أن يحمل جثمان ذلك الميت إلى دارها.. الأمر الذي تكرهه هي وتأباه، ومن ثم فهي تطمع من «اليساندرو» في أن يؤدي لها صنيعًا؛ وذلك بأن يذهب إلى قبر «اسكناديو» في مطلع الليل، فيرتدي أكفان الميت، ويمكث هناك منتظرًا حتي يفيد ذلك الشخص –قريب سيدتك– فيخرجه من القبر.. وإذ ذاك، عليه أن يصبر، دون أن ينبس بحرف، وأن يتركه يحمله إلى بيتها، حيث يجدها على أتم استعداد لاستقباله.. وعليه أن يترك لها ما تبقى من الأمر.

فإذا وافق على ذلك, كان بها، وإلا، فحذريه من أن تقع عليه عينا سيدتك مرة أخرى ، ومن أن يلاحقها ويضايقها بخطاباته، حتى لا يصاب بما يكره.. وعليك بعد ذلك أن تذهبي إلى «رينوتشيو»، لتخبريه بأن سيدتك مستعدة لأن تقربه وترضيه، علي شريطة أن يقوم بأداء خدمة صغيرة لها.. تلك هي أن يذهب فيخرج جثمان «اسكناديو» من قبره، حوالي منتصف الليل، ثم يحمله الي دارها. وهناك ستكون السيدة في

استقباله لتفضي إليه بالسر في ذلك، ثم تجعله أسعد إنسان في الوجود. فاذا رفض، فحذريه من أن يقترب منها مرة أخري».

وامتثلت الوصيفة لأوامر سيدتها، فمضت الي كل من الرجلين –علي حدة– وأبلغته رسالة السيدة.

وأجاب الاثنان بأنهما ليسا على استعداد للذهاب إلى المقبرة فحسب، بل إنهما ما كانا ليحجمان عن الذهاب إلى الجحيم، إذا كان في ذلك ما يرضي رغبة السيدة.. وحملت الوصيفة جوابيهما إلى مولاتها التي كانت في ارتقابها، لترى ما إذا كان الرجلان من الغباء بحيث ينفذان رغبتيها هاتين. وما من أرخى الليل سدوله حتى تجرد «اليساندرو» من معظم ثيابه، ثم مضى ليشغل مكان «اسكناديو» في القبو المعد لدفن الموتى في الكنيسة ، لكنه أصيب –خلال الطريق– بذعر مفاجئ، فشرع يقول لنفسه: «ألا ما أغباني.. إلى أين أنا ذاهب؟ .. ثم، من أدراني بأن هذا ليس شركًا نصبه لي أحد أقارب السيدة؛ اذ اكتشف حبي لها، فعول علي أن يقتلني في القبو؟ .. وهو أمر إذا تم بالفعل، فلن يدري به أحد.. بل كيف لي أن أطمئن الي أنه ليست هناك خدعة دبرها لي غريم ربما كانت السيدة أشد كلفًا به، منها بي؟.. ولكن، هب أن الحقيقة ليست كهذا الظن أو ذاك، وأن ليست هناك نية معقودة علي أي منها.. وهب أيضًا أن قريبها وأعوانه حملوني إلى دارها –باعتباري اسكناديو– أفلا يجدر بي أن استنتج أنهم لا يبغون جثمان هذا الشقي حرصًا منهم على الاحتفاظ به، أو رغبة في أن يقدموه هدية لها، وإنما هم ينتوون ولابد أن يمثلوا بالجثة، انتقامًا من صاحبها لذنب استحق من أجله هذا التمثيلّ؟. إنها كذلك تسألني أن لا

أنبس بكلمة واحدة مهما يصيبني.. ولكن، هب أنهم اقتلعوا عيني، أو خلعوا أسناني، أو بتروا يدي، فكيف استطيع أن أتحمل هذا؟.. وهب أنني صرخت، وإنهم إذ ذاك عرفوني.. ألا يجوز إذ ذاك أنهم يسيئون إلي، أو يستغلون حالي أبشع استغلالّ؟.

كذلك من المحتمل أن لا يتركوني للسيدة، فتحسب هي أنني لم استجب لأوامرها، وإذ ذاك يضيع كل هذا الجهد هباء».

وزحمت الهواجس رأسه، فهم بأن ينكص علي عقبيه عائدًا إلي داره، لولا أن الحب حفزه علي المضي، إذ عاجله بحجج أشد إقناعًا من تلك الهواجس، فبددها من رأسه.. وأسرع «اليساندرو» إلي القبو، فعالج بابه حتي فتحه، ثم تسلل الي الداخل؛ فجرد الميت من أكفانه وارتداها.

وبعد أن أغلق القبر خلفه، رقد في مكان «اسكناديو»؛ واذ ذاك راودته الخواطر حول شكل ذلك المجرم، وأخلاقه، وما تناهى إليه من أنباء نبشه لقبور الناس، واقترافه أبشع الدناءات، وأخس الجرائم، فاستبد به الهلع، وأصبح يتوقع –بين لحظة وأخري– أن يهب الرجل من مرقده، فيخنقه بيديه.

على أن الحب تغلب علي الرعب أخيرًا، فمكث «اليساندرو» مستلقيًا وكأنه جثة هامدة، في انتظار ما تأتي به الأحداث.

وما إن انتصف الليل، حتى خرج «رينوتشيو» من داره، منصاعًا بدوره لأوامر السيدة. وجعل –أثناء سيره– يستعرض عديدًا من الأمور التي قد تقع له. لاسيما إذا قُدِرَ له أن يلتقى بضباط أمين الأمن

«الشريف»، وهو يحمل جثة «اسكناديو» على ظهره، فلن تكون النتيجة إذ ذاك سوى أن يحكم عليه بأن يُحرق حيًا جزاء انتهاكه حرمة الموتى.. كذلك فكر في أنه قد يثير على نفسه نقمة أهل «اسكناديو» إذا قُدِرَ لهم أن يعرفوا بما فعله بجثته. وراودته مخاوف أخرى كانت كافية لأن تصده عن المضي في المشروع. ولكنه ما لبث –بعد طول جدال مع نفسه– أن قال: «ما هذا؟.. كيف أقابل بالرفض أول رجاء للسيدة التي أحببتها، وما زلت أكن لها كل الحب، لا سيما إذا كان في إطاعة رجائها الظفر بودها؟.. ما ينبغي لي أن أتردد في الوفاء بوعدي لها، ولو أيقنت من الموت في هذه المحاولة».

وإذ امتلأت نفسه بهذا العزم، مضى إلى القبو ففتحه: وكان «اليساندرو» يرقد ساكنًا، جامدًا، رغم الذعر الذي كان يعربد بين جوانحه. وظنه «رينزتشيو» جثمان «اسكناديو», فأمسك بقدميه، وجره إلى خارج القبو، ثم رفعه فوق كتفيه ومضى به إلى دار «فرانشيسكا».. على أنه لم يعن كثيرًا بالطريقة التي كان يحمله بها، ومن ثم فكثيرًا ما كان يلطمه في جدران المنازل، فيرتطم المسكين بها في عنف يهز كيانه، لاسيما وقد كانت الليلة دامسة الظلام، لا يكاد المرء يتبين فيها مواقع قدميه، ولا إلى أين تسيران به.

وبلغ أخيرًا باب الدار, وكانت «فرانشيسكا» في النافذة –مع وصيفتها– في ارتقاب وصول الرجلين. على أنه اتفق –إذ ذاك– إن كان ضباط الشرطة متربصين في الشارع، ليقبضوا على شقي تطارده العدالة. فلما سمعوا وقع قدمي «رينوتشيو»، دفعوا مصابيحهم نحوه، ليتعرفوا على

القادم، ورفعوا هراواتهم صائحين: «من هناك؟».

وعند ذاك، لم يجد «رينوتشيو» مُتسعًا للتفكير ولا للتلكؤ، فألقي بحمله علي الأرض، وانطلق يجري بأسرع ما استطاعت قدماه أن تحملاه. كذلك أدرك «اليساندرو» ما يرتقبه، فبادر الي النهوض بأسرع ما كان في وسعه متعثرًا في أكفان الميت التي كان أطول من قامته كثيرا، وأطلق ساقيه للريح كما فعل زميله.

وعلى ضوء مصابيح الشرطة، رأت السيدة بجلاء كيف كان «رينوتشيو» يحمل زميله علي ظهره، وقد التف هذا في أكفان الميت.. وعجبت للحب القاهر الذي مدّهما بهذه العزيمة الجبارة، وذلك الإصرار العنيد.

فلما شهدت «رينوتشيو» يلقي «اليساندرو» أرضًا، ورأتهما يجريان بأقصى ما لديهما من سرعة، ضحكت ملء قلبها, وعادت الي مخدعها وهي تحمد الله إذ تخلصت منهما، قائلة لوصيفتها إن حب الرجلين – ولابد– حب قوم عارم، وإلا ما صدعا بمثل تلك الشروط.

وفي ذلك الوقت، كان «رينوتشيو» يلعن حظه العاثر، حتي إذا ابتعد عن المكان تريث حتي انصرف الضباط، ثم عاد يتلمس طريقه في الظلام، عسى أن يعثر على البقعة التي ألقى فيها «الجثة» فيعود إلى التقاطها، ويتم أداء مهمته.

فلما لم يجدها، حدس أن الحراس قد حملوها، ومن ثم انصرف بقلب مثقل، وخيبة الأمل تحز في نفسه.

كذلك لم يدر «اليساندرو» ما ينبغي عليه أن يفعله.. وانصرف إلى داره مهمومًا، مغتمًا كصاحبه، وهو لا يزال يجهل الشخص الذي كان يحمله.

وعندما اكتشف في الصباح أن قبر «اسكناديو» كان مفتوحًا، ولا أثر للجثة فيه -إذ كان «اليساندرو» قد دفع بها إلى قاع القبو- قامت قيامة المدينة كلها، وساور الكثيرين اعتقاد بأن الشيطان ولابُد قد حمله من قبره.

ورغم هذا كله، فقد عاد العاشقان إلى السيدة، وراح كل منهما يبالغ فيما فعل، ويبرر لها الفشل الذي مني به، ويسألها أن تغفر له عدم استطاعته المضي في تنفيذ أوامرها حتى النهاية.. وتوسلا إليها أن تنعم عليهما بحبها ووصالها, ولكنها تظاهرت بأنها لا تصدق أحدًا منهما. وحتى توقفهما عن لجاجهما وإلحاحهما، عمدت إلى التكذيب التام لكل ما قاما به من جهود مضنية، مبررة ذلك بفشل كل منهما في تحقيق الشرط الذي طلبته.

اليوم العاشر

الصداقة.. أقوى من الحب

كان «بامفيلو» هو ملك اليوم العاشر، فلما حان الوقت المخصص لرواية القصص، خير الرواية بين موضوع الحب، وموضوع اللاإقدام والجرأة، وموضوع الأعمال الجليلة الرائعة.. وإذا تلقت «فيلومينا» أمر الملك، شرعت تقدم لقصتها بقولها:

«كلنا نعرف، يا سيداتي، أن في وسع الملوك –كلما أمكنهم– أن يأتوا من الأعمال أجلها وأسماها, وما أكثر ما تُطلب منهم هذه الأعمال بالذات. ومن ثم فإن الذي يؤدي واجبه في هذا الصدد، إنما يحسن لنفسه ولسواه، علي أن هذا يجب أن لا يحملنا علي أن نسرف في إكبار الملك الذي يؤدي مثل هذا الواجب، وأن نمعن في رفع مقامه، وأن نغالي في استصغار من لم يؤتِ مقدرة علي ذلك، اذا كان ماضيًا –رغم عدم قدرته– في محاولة إتيان جلائل الأعمال.

أجل.. لا ينبغي أن نفرط في إكبار الملوك، بل اعلموا أن من أقراننا من هم أجدر بالإعجاب، إذا هم استطاعوا أن يأتوا ما في وسع الملوك إتيانه. وعلى هذا، فسأروي لكم ما أقدم عليه صديقان من الرعية، من تصرف جليل، نبيل»:

في العصر الذي كان فيه «أوكتافيوس قيصر» – الذي أُشْتُهِرَ باسم

أوغسطس فيما بعد- يحكم الإمبراطورية الرومانية كواحد من أعضاء مجلس الحكم الثلاثي، كان يقيم في روما سيد يدعى «بابليو كنتو فالفيو». ولما كان ولده «تيتو» شابًا علي جانب كبير من المواهب والثقافة، فقد بعث به إلى (أثينا) ليدرس الفلسفة، وأوصى به هناك نبيلاً من أصدقائه يُدعى «كريمس», فأواه ذلك الرجل في منزله واحتفى به كزميل لابن له يدعي «جيسيبز».

ثم عهد بالاثنين الي رعاية الفيلسوف «ارستيبو». ودرج الصبيان معًا، وبلغ من توافق مشاربها وأخلاقها أن نشأ بينهما حب أخوي، وصداقة قوية لا يفصمها سوى الموت، وأصبح كل منهما لا يهدأ له بال أو يطيب له خاطر إلا في صحبة الآخر.

وبدأ الاثنان دراستهما معًا، وتقدما فيها بفضل ما أوتيا من عبقرية خارقة حتى بلغا أقصى ذرى الفلسفة بخطوات واسعة متعادلة كانت مثار الإعجاب. وهكذا ظلت حال الاثنين، واغتبط لذلك «كريمس» -الذي كان يوزع عليهما الرعاية في مساواة- إلي أن قبضه الله الي جواره بعد ثلاث سنوات وهو في أرذل العمر. وحزن لفقده الشابان كما لو كان والدهما معًا -لا والد واحد منهما دون الآخر- بل يمكن أن يقال أن مصابهما فيه كان أفدح عندهما من أن يحتمل أي عزاء.

وبعد بضعة أشهر، قدم أصدقاء «جيسيبو» وأقاربه لزيارته وليكرروا له العزاء، ثم أخذوا يواسونه، ويغرونه علي أن يتخذ لنفسه زوجة، وراحوا يحبذون له فتاة أثينية تدعي «سوفرونيا» ذات جمال طاغ، ومن أسرة نبيلة،

ولم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها بعد.

ووافق الشاب علي خطبة الفتاة، وعندما اقترب موعد زواجهما، استطاع «جيسيبو» أن يحمل «تيتو» على أن يرافقه في زيارة خطيبته التي لم يكن قد رآها حتي تلك اللحظة. فلما بلغا منزلها، وجلست الفتاة بينهما، أخذ «تيتو» يتأمل مفاتن الفتاة المنطوية علي نفسها، ثم جعل يوليها كل انتباهه.. حتى إذا أذهله كل جزء وكل سمة فيها راح يثني عليها فيما بينه وبين نفسه، ثم ما لبث أن هام بها أكثر مما يهيم أي رجل في العالم بامرأة، دون أن يبدي ما ينم عن ذلك الهيام.

وبعد أن مكث الصديقان فترة من الوقت، غادرا الفتاة عائدين الي منزلهما,

وعندما أوى «تيتو» إلى غرفته وانفرد فيها بنفسه، في ذلك المساء، جعل يسترجع في خاطره ما رآه من مفاتن خطيبة صديقه، وكان كلما أمعن في التفكير، ازداد بها شغفا، وتلظت النار في فؤاده. وأخيرًا، استجمع شتات نفسه بعد زفرات وتنهدات، ثم انفجر يقول:

آه.. ما أتعسك يا تيتو.. أين، وفيمن ركزت قلبك بحبك وكل آمالك؟ ألا تعلم -بعد الأفضال التي أغدقها عليك لريمس وأسرته، وبعد الصداقة الحميمة التي نشأت بينك وبين جيسيبو- إلى من هي مخطوبة؟

أفلا ينبغي لك أن تحترمها لذلك كله احترامك لأخت لك؟ ولماذا ترضى لنفسك أن تتردى في الفخ؟ وأي هدف لك من وراء هذا الأمل

الواهم؟ افتح عينيّ عقلك وبصيرتك أيها البائس، واعرف نفسك، ولا تستسلم لغير هاتف العقل، واكبح عنان شهوتك الجامحة، ولطّف من حدة رغباتك المتهوسة ووجّهها غير هذه الوجهة، بل أقهر منذ البداية شهوتك الشريرة، وكن سيد نفسك ما دامت تحت سيطرتك، فإن ما تشتهيه لا يتمشى مع الأمانة ولا يتفق مع الوفاء.

بل إن ما تجري وراءه – ولو كنت واثقًا من الظفر به، فما بالك وأنت لست كذلك– يجب أن تهرب منه إذا كان لديك أي تقدير لما تتطلبه الصداقة الحقة ويقتضيه الواجب.

إذن، ماذا عساك فاعل إلا أن تعمل بما يوحي به العقل، وهو أن تقلع عن هذا الحب؟ ولكنه ما لبث أن تذكر جمالها، فأنكر ما آمن به على التو، وشرع يقول لنفسه:

إن قوانين الحب أقوى مما عداها، إنها تلغي شريعة الصداقة، بل تلغي حتى القوانين والشرائع السماوية. فكم أحب والد ابنته، وأخ أخته، وأم زوج ابنتها.

مما يعد أعجب كل العجب من أن يشغف صديق بزوجة صديقه، بل إن هذا أمر شائع، كثير الوقوع. أضف إلى ذلك، إنني شاب، وإن الشباب يخضع خضوعًا تامًا لسلطان الحب.فلندع من يكبروننا سنًا يفكرون فيما هو شريف أو غير شريف. أما أنا، فلن أخضع لشيء سوى الحب. واذا كان الجمال هو الذي يسيطر على كل شيء، فكيف أُلام إذن –وأنا شاب– على أني أحببت تلك الفتاة؟

إنني أحبها، لا لأنها خطيبة صديقي، ولكن لأنها جميلة. والقدر وحده هو المسئول، لأنه جعلها خطيبة لصديقي.. ولكن لعل هذا الصديق أن يكون أقل تبرمًا بإعجابي بخطيبته، مما لو كان المعجب المدنف هو شخصًا آخر غيري.

وهكذا ظل يجادل نفسه، لا في ذلك النهار وتلك الليلة فحسب، ولكن لعدة أيام أُخر، حتي أصبح لا يأكل ولا يغمض له جفن؛ فاضطر أخيرًا إلى ملازمة الفراش. وظن «جيسيبو» أن صديقه غارق في التفكير، ثم شاهده وقد نال منه المرض، فأحزنه ذلك أشد الحزن، وجعله يتلمس كل شيء للتسرية عنه.

وراح يلح عليه ليطلعه علي سر وجومه, ولكنه لم يتلق منه سوى إجابات لم تشف غليله، أدرك حينها أنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

اضطر في النهاية إلى مصارحته, ومن ثم أخذ يحدثه بصوت تخنقه العبرات والزفرات:

– أيه يا جيسيبو, لو رحمتني الآلهة لكان الموت أفضل عندي من الحياة. لقد انتهى بي التفكير إلى أن القدر قد وضعني في مأزق حرج ليبلو فضيلتي، وها هي ذي قد تبددت إلى اللوم والتثريب إلى الأبد، ولكنني أتوقع –بعد زمن غير بعيد– أن ألاقي الجزاء العادل؛ وهو الموت الذي بت أعتبره الحياة منذ شعرت بضعتي التي أكشف عنها لك، أنت لا أستطيع، ولا ينبغي أن أخفي عنك شيئا على الإطلاق.

ثم راح يروي له سبب ما يعانيه من صراع نفسي عذبه، ومضى يعترف

له بحبه المتدله لسوفرونيا، ويُكاشفه بأنه اعتزم أن يموت إزاء دناءة عاطفته التي لا تتفق مع الشرف، الأمر الذي يرجو أن يتم في القريب.

عندما سمع «جيسيبو» ذلك الحديث، ولمس مبلغ أسى صديقه وقف لحظة ينتهبه التردد –وهو الذي كان يحب صديقه، ولكن بدرجة أكثر اعتدالًا واتزانًا– غير أنه آثر في نفسه حياة صديقه، وحمله الرثاء لحاله على أن ينخرط في الحزن, ثم قال له:

«لولا أنك يا تيتو أحوج مني إلى راحة البال، لعنفتك على إخفاء عاطفتك عني كل هذا الوقت. وإذا ظننت جدلاً أن عاطفتك لا تتمشى مع الشرف والوفاء؛ فقد كان هذا أدعى لأن لا تخفيها إذا لم تكن كذلك ، فإن واجب الصديق أن يفرح لما يرفع من شأن صديقه، وليس أقل من ذلك، ويحاول ما استطاع أن يقصي عن قلب صديقه ما يراه دخيلاً به.

ولكن، دعنا من هذا الموضوع لنتحدث فيما أنت أحوج أن أحدثك عنه.. فأنا لا يدهشني قط أن تتدله في حب فرونيا، خطيبتي.. ولكني كنت خليقًا بأن أزداد دهشة إن كان الأمر على العكس، نظرًا لجمالها الخارق، ولكرم نفسك أن تتأثر بالحب إذا سَمَت غايته.

ثم لماذا يدعوك حبك لفرونيا أن تشكو – في غير إنصاف أو عدالة– من القدر الذي وهبها إياي، وتتمنى لو أنها كانت لرجل آخر لا تربطك به صداقة، مع إنك يجب أن تكون أكثر اغتباطًا إذ جعلها القدر نصيبي أنا، لأن شخصًا آخر لا يهمه شأنك لن يُفضلك على نفسه، وهذا ما يجب أن تتوقعه مني إذا كنت تعتبرني صديقك، مثلما اعتبر نفسي في الحقيقة

والواقع.

وحجتي في ذلك أنني لا أذكر منذ بدأت صداقتنا إنني امتلكت شيئًا إلا واعتبرتك مالكًا له كذلك، بمثل ما أنا مالكه. وأنا أعتبرك كذلك في هذا الأمر بالذات، حتى بعد أن قطعنا شوطًا كبيرًا في الاستعداد بالزواج، بحيث أصبح من العسير إلغاؤه.

ولكن، ما زال الأمر في استطاعتي أن أخلعها عليك، وسأفعل ذلك، وإلا فكيف يكون قدر صداقتي عندك إذا كان هذا الأمر في وسعي ولم أفعله؟ إنها خطيبتي حقًا، وأنا أحبها حبًا شديدًا في الواقع، وأترقب بنفاد الصبر أن تتم إجراءات زفافها إلى، ولكن.. بما أن رغبتك، بل حبك لها أقوى وأشد، وبما أنك أقدر مني على تقدير محاسنها، فثق أنني سوف أقودها إلى مخدعك، لا كزوجة لي وإنما كزوجة لك.

ولذا يجب أن تقلع عن هذه الأفكار اليائسة، وأن تتجرد من هذه الخواطر الملبدة بالسحب، وأن تسترد صحتك السابقة وأساريرك المشرقة، وأن تتوقع –منذ هذه الساعة– أن تُثاب على حبك، وأن تستكمله، فأنت أكثر جدارة مني بهذه الفتاة.

وعلى الرغم من الفرح البالغ الذي غشي تيتو لتحقيق آماله، شمله شعور جارف بالخزي، جعله يحس أنه كلما تجلت أفكار صديقه الكريمة، تجلى له أن من الخزي أن يقبل منه هذه التضحية؛ ولذلك لم يقو على قمع دموعه، ثم قال في صوت واهن:

إن صداقتك الخالصة الكريمة يا جيسيبو ترسم لي ما يجب أن أعمله

من ناحيتي، وحاشاي أن أتخذ زوجة لي من جعلتها الأقدار من نصيبك، لجدارتك عني.

ولو أن الآلهة وجدت فيها الزوجة التي تُناسبني، لهيأت لنا ذلك. فتقبل مشكورًا ما اخترته لنفسك ومنحتك إياه الآلهة، ودعني أفنى في دموعي، لأني لا أستحق مثل هذه النعمة، فإما تغلبت على هذا الحب فأظل على صداقتك، أو يتغلب الهوى عليّ ويقتلني؛ فينتشلني الموت من التعاسة والشقاء.

فأجابه "جيسيبو":

يا صديقي العزيز إذا كانت صداقتنا الحميمة تسمح لي بأن أجبرك على أن تمتثل إرادتي في شيء ما، ففي هذا الشيء بالذات سوف أستغل نفوذي عليك، وإذا أنت رفضت أن تتقبل توسلاتي وضراعاتي، فإنني بهذا الإكراه سأحقق سعادة صديقي؛ ذلك لأنني أعرف ما للحب من قوة، وأن كثيرين ممن يتعبدون في محرابه قد انتهى بهم الحب إلى نهاية تعسة.

وإني لأراك مشرفًا على مثل هذا الخطر الذي تنوء تحت عبئه الباهظ بلا حول ولا قوة، ولذا –إن لم يكن ثمة سبب آخر– تجدني أعتز بحياتك من أجل نفسي، ومن ثم فسوف أعمل على أن تكون "سوفرونيا" من نصيبك.

ولا شيء من الكرم في هذا، لأن العثور على النساء أهون وأيسر من الحصول على الأصدقاء، وفي وسعي أن أحصل على زوجة أخرى، ولكنني قد لا أجد مُطلقًا صديقًا مثلك.

وإنني لأوثر أن أنقل حبي إلى امرأة أخرى عن أن أفقدك، ولذا أتوسل إليك أن تتخلص من أساك كي تسعدني وتسعد نفسك، واستعد لأن تلقى الفرحة التي يتعطش لها حبك المشبوب.

وكان تيتو في خزي من أن يقبل ذلك العرض، ولكن الحب، وإلحاح صديقه أقنعاه آخر الأمر، فأجاب: «إنني إذ أعمل بما ترجونيه، لا أدري هل هو لإرضائك أو إرضائي، ولكن ما جبلت عليه أنت من حرية الفكر والكرم، قد تغلب على كل شعور في نفسي بالمهانة والعار؛ ولذلك سأعمل بما تأمرني به. ولكن تذكر إنني لا أعتبر أنك أرضيتني في حبي فحسب، مهما يكن هذا الحب عظيمًا, ولكنك قد تجاوزت إلى حد أن أتحت لي الحياة على يديك، ولهذا فسأظل مدينًا لك بنفسي التي بين جنبي، وأضرع إلى الآلهة أن تتيح لي الفرصة كي أدلل على مبلغ شكري؛ إذ أوليتني من الحب والاعتبار أكثر مما كنت أوليهما نفسي».

فلما انتهى "تيتو" من إظهار شعوره نحو صديقه، قال هذا: «لكي نُوفق يا تيتو فيما سنتخذه من خطوات، أرى من الأفضل أن نتبع الخطة التالية: أنت تعلم أن الاتفاق على زواجي من الفتاة قد تم بيني وبين أهلها، فإذا أنا أعلنتهم برفضي زواجها، أفضى ذلك إلى فضيحة كبيرة، وأكون قد أسأت –إلى الأبد– إلى علاقتي بهم، وإن كان الأمر الأخير لا يهمني كثير، ما دام ذلك يطمئنني إلى فوزك بها، ولكني أخشى في مثل هذه الحالة أن يهبوها لشخص آخر، فتفقد أنت ما لم أظفر به أنا.

أما إذا تدبرت الأمر جيدًا، لوافقت على ما أراه من أن أستمر في

إجراءات الزواج، ثم أحضر الفتاة إلى منزلي كزوجة لي، حتى إذا انتهت إجراءات الزفاف وضعتك سرًا في فراشها كما لو كانت زوجتك، إلى أن يحين الوقت المناسب لإعلان ذلك على الملأ؛ فإذا وافق أهلها على ذلك كان بها، وإلا فسيكون السهم قد نفذ، ولن تكون لهم ثمة حيلة في رده، مما سيحملهم على قبول الأمر الواقع.

وصادفت الخطة ترحيبا من "تيتو"، فما إن استرد صحته، حتى جاء "جيسيبو" بالفتاة وسط مظاهر الفرح والابتهاج، ثم ما لبثت النساء أن قدنها إلى مخدع زوجها وانصرفن، وكانت حجرة "تيتو" تلاصق غرفة "جيسيبو"، بحيث يُمكن لأحدهما أن يدلف من إحداهما إلى الأخرى.

فما إن أطفأ "جيسيبو" الشموع، حتى مضى في صمت وهدوء إلى "تيتو" يخبره بأن في وسعه الآن أن يمضي إلى فراش السيدة.

واستبد الخزي بتيتو، فشعر بالندم وحاول أن يتراجع، ولكن "جيسيبو"—الذي كان على الدوام صديقه الحميم بمثل ما كان يعتبر نفسه— مضى يلح عليه، إلى أن حمله على الذهاب إليها، ودلف تيتو إلى فراشها، وهو يسألها بصوت رقيق إذا ما كانت تقبل أن تكون زوجة له، فلما ردت عليه بالإيجاب وهي تحسبه "جيسيبو"، تناول خاتمًا غاليًا وضعه حول أصبعها، ثم قال:

وسأكون أنا زوجًا لك.

وبذلك، تم زواجهما، وهي تعتقد طوال الوقت أنها في أحضان "جيسيبو".

وحدث في ذلك الوقت أن توفى والد تيتو، وجاءته رسائل تدعوه للرحيل في الحال إلى روما لأعمال خاصة، فقرر أن يرحل من فوره، وقد اعتزم أن يأخذ معه "سوفرونيا" و"جيسيبو"، ولكنه لم يدر كيف يتأتى له ذلك دون أن يكشف الستار أولاً عما تم ؟

ولذلك دعاها الرجلان يومًا إلى حجرتها، وأفضيا إليها بكل ما حدث، وذهلت الفتاة، وتولاها الارتباك، وراحت تنتقل بنظراتها من أحدهما إلى الآخر. وأخيرًا، انفجرت باكية، وأخذت تنعي على "جيسيبو" أن خدعها.

ثم آثرت –قبل أن تقيم الدنيا وتقعدها في ذلك المنزل– أن تمضي من فورها إلى بيت والدها. وهناك، صارحت والديها بتفاصيل تلك المكيدة، مؤكدة أنها ليست زوجة جيسيبو –كما يتوهمان– وإنما زوجة تيتو.

وغمر الحزن والديها بمثل ما شاع في نفوس جميع أقاربها وأصدقائها الذين سخطوا كل السخط على جيسيبو، وكذلك امتعض أقارب جيسيبو امتعاضًا بالغًا، وصارحوه جميعًا بأنه لا يستحق اللوم والتقريع فحسب، وإنما يستحق أقصى العقاب. بيد أنه أنشأ يبرر لهم فعلته، مُعلنًا أنه جدير بالشكر لأنه زوج الفتاة من رجل يفضله.

أما تيتو، فقد تتبع ذلك كله والقلق يعصف بوجدانه، وكان يعلم أن الإغريق جُبِلوا بطبائعهم على إثارة الصخب والضجيج، وإقامة الدنيا، إذا لم يلقوا من يعارضهم، أما المقاومة، فتسلس قيادهم، وتحملهم على الإذعان والانصياع للأمر الواقع.

ولما كان يتمتع بعبقرية الأثينيين وروح الرومانيين الصادقة، فقد دعا جميع أصدقاء جيسيبو وسوفرونيا إلى اجتماع في المعبد، ثم دخل عليهم دون أن يصطحب أحدًا غير جيسيبو، وواجههم قائلًا: «من رأي كثير من الفلاسفة أننا نحن البشر القانون، لا نعمل إلا ما قدرته علينا الآلهة الخالدة التي لا يدركها الفناء، ومن ثم تستنتجون أن أعمالنا يتحكم فيها القدر وحده، ووجب على من يحترم هذه العقيدة أن يفطن إلى أنه إذا سمح لنفسه أن تعيب ما لا قبل لها بنقضه ومحوه، فإنه إنما يشهر حربًا على الآلهة التي يجب أن نُؤمن بأنها تُهيمن بشرائع خالدة لا يجوز عليها الخطأ, سواء علينا أو على أعمالنا».

ألا ما أحمقنا وأجرأنا عندما نأخذ عليها تصرفاتها، وما أحق بالعقاب من أولئك الذين يقدمون على مثل هذه الجرأة وتلك الجسارة، وهو نفس ما اعتزمتم أيها الناس أن تتورطوا فيه، إذا صح ما سمعته من أنكم تثيرون ضجة متصلة بسبب زواجي بسوفرونيا التي أعطيتموها لجيسيبو دون أن تفكروا في أن الآلهة قدرت منذ البداية أن لا تكون زوجة له وإنما زوجة لي.

ولما كان الحديث عن أسرار العناية الإلهية أعقد من أن يفهمه سواد الناس، فإنني أرتضي ما يقبله العقل البشري, فأقول إنني مكره على ذكر شيئين يختلفان مع طبيعتي، وهما أن أزكي نفسي، وأن ألوم الآخرين أو أن أقلل من شأنهم.

ولكني وقد اعتزمت أن أتوخى الحقيقة في الحالين –لأن الأمر يتطلب مني ذلك– أقول أن شكواكم تنبعث من الغضب أكثر مما تصدر عن

العقل؛ إذ لاتني معاول السب واللعن تهبط منكم على رأس جيسيبو، لأنه تكرم فخلع عليّ السيدة التي أعطيتموها له ليتخذها زوجة.

«على أن هذا العمل جدير بأكثر الثناء، لسببين: أولهما– لأنه إنما قام بأنبل عمل من أعمال الصداقة. وثانيهما– لأنه تصرف بحكمة لم تواتكم فيما فعلتم.

ولن أتحدث الآن عن مدى ما تدفع أواصر الصداقة المقدسة إلى عمله من أجل الصديق، ولكني سأقنع فقط بأن أذكركم بأنها أقوى من أواصر الدم ، ذلك لأن أصدقاءنا هم من اختيارنا المحض، أما قرابتنا فنتلقاها من أيدي القدر، فإذا كان جيسيبو –الذي هو صديقي– قد رأى حياتي أثمن من خاطركم عنده، فليس في ذلك ما يدعوكم إلى العجب والدهشة.

وسأريكم بمختلف الأمثلة كيف أثبت أنه أعقل منكم جميعًا، أنتم يا من لا تعرفون سوى القليل عن العناية الإلهية، وأقل القليل عن التزامات الصداقة.

لقد أعطيتموه سوفرونيا لأنه سيد نبيل، وفيلسوف كذلك، أعطيتموها لأثيني فخلعها على روماني، أعطيتموها لرجل من أسرة كريمة, فخلعها على رجل من أسرة أكرم، أعطيتموها لشخص غني, فخلعها على شخص أغنى منه بكثير، أعطيتموها لرجل لا يحمل لها سوى بعض التقدير ولا يكاد يعرفها فخلعها على رجل أحبها حبه لحياته.

فكروا إذن فيما قلته، وأعلموا إنني شاب وفيلسوف مثل جيسيبو،

وإنني على جانب كبير من الوسامة والعلم، وإننا في سن واحدة، وإننا تلقينا نفس الدراسات. وإذا كان صحيحًا أنه أثيني، وأنا رماني، فإن أحدًا لا يُمكن أن يدعي وجود منافسة بين هاتين المدينتين، لأن روما مدينة حرة مستقلة، بينما أن أثينا تابعة تدفع الجزية لها.

وروما قد اشتهرت بأسلحتها واتساع إمبراطوريتها، وبمختلف أنواع التعلم؛ بينما أن أثينا لا تشتهر بغير قليل من الفلسفة. وإذا كنتم ترونني هنا طالب علم، ولا كبير شأن لي، فإنني لست متحدرًا من حثالة الدهماء؛ ذلك لأن منازلي وممتلكاتي في روما زاخرة بتماثيل أجدادي، كما أن سجلاتنا السنوية تشهد بالانتصارات التي لا حصر لها، والتي كسبتها أسرتي للكابيتول.

ولم يقو الزمان على أن يلطخ ما أحرزناه من مجد، وسيظل نور منازلنا الباهر هو هو، لا يخبو إلى الأبد.

«أما ثروتي، فلن أتحدث عنها بدافع من الحياء فحسب، وإنما — وأرجو أن تذكروا هذا— لأن الفقر مع الفضيلة هو أنبل ما ورثه قدماء الرومان.

ولكن إذا كان لكم رأي يخالف ذلك، فتحسبون —كالغالبية العظمى الجاهلة— أن السمو الحقيقي يتمثل في الغنى والثراء، ففي وسعي أن أخبركم بأنني في سعة كبيرة، لا نتيجة لجشع أو طمع، وإنما عطية ونعمة من القدر, وإذا كنت أعترف أنكم رغبتم في مصاهرة جيسيبو لأنه من نفس مدينتكم، إلا أنني أتساءل لماذا لا أكون أنا موضع احترامكم الكبير في روما، إذا ما

رغبتم في أن يكون لكم صديق أمين يدافع هناك عن كل شئونكم ومصالحكم، في السر والعلانية؟

«فلكل هذه الاعتبارات، أقرر أن جيسيبو كان أوفر منكم حكمة عندما زوج سوفرونيا من تيتو كنتو فلفيوس، المواطن الروماني النبيل، الثري، الذي ينحدر من أسرة عريقة، وأحد أصدقاء جيسيبو».

وقد يقول بعضكم: «إننا لا نعيب ما حدث، وإنما نعيب الطريقة التي تم بها، وهو أن تصبح زوجة له.. خلسة», فهل يا ترى في هذا ما يدعو للعجب؟!

ألا تتزوج فتيات دون رضاء آبائهن؟ بل إن بعضهن يرحلن إلى بلاد أجنبية مع عشاقهن، وهن خليلات أكثر منهن حليلات.

والبعض الآخر لا يعلن للناس زواجهن، حتى تظهر عليهن أعراض الحمل أو يجيئهن المخاض.

والآن، أي شيء مثل هذا حدث لسوفرونيا التي خلعها جيسيبو عليِّ بكل أدب وشرف؟

قد يزعم بعضكم أنها تزوجت من شخص لم يكن في النية أن تزف إليه على الإطلاق، ولكن هذا الزعم أصبح الآن غاية في الحماقة، ولا جدوى من ورائه، لأن للقدر أحيانًا وسائل عجيبة في إنفاذ مشيئته.

ثم ماذا يهمني إذا كان من يتولى خدمتي إسكاف أو فيلسوف، وسواء أكان ذلك في السر أو الجهر، ما دامت الخاتمة طيبة؟

صحيح أنني إذا وجدت الإسكاف غير بصير بعمله، قطعت ما بيني وبينه، ولكني مضطر مع ذلك أن أشكره، ما دام قد أدى لي خدمة صادقة.

وبالمثل، تزوج جيسيبو من سوفرونيا، فإذا شككتم في فطنته، وجب أن تحاذروا فلا تتيحوا له فرصة التخلص من بناتكم مرة أخرى.

ولكن عليكم –مع ذلك– أن تشكروه على ما فعل، ما دام لم يقصد إلى تلطيخ أسرتكم في شخص سوفرونيا.

«وإذا كنت قد تزوجت فتاتكم على هذه الصورة، فأنا لست بخائن أو برافض شرف مصاهرتكم، وإنما أنا رجل سحرني جمالها وخلبتني عفتها، وخفت إن أنا تقدمت إليكم بالطريق العادي أن لا تقبلوني، خشية أن أحمل إلى روما من تحبونها كل الحب، ولذلك لجأت إلى الحيلة، وجعلت جيسيبو يتزوجها نيابة عني.

أضيفوا إلى ذلك أنني –رغم حبي لها هذا الحب الجارف– قد شبكتها بخاتمي، لتحمله شاهدًا على زواجنا، بعد أن سألتها عما إذا كانت تقبل أن تكون زوجة لي وردت بالإيجاب.

فإذا كانت الحيلة قد جازت عليها، فهي الملومة، لأنها لم تسألني من أكون. هذه هي كل جريمتي كمحب، وجريمة جيسيبو كصديق.. أفمن أجل ذلك تنصبون له الفخاخ، وتتوعدون حياته؟

«والآن، فلندع هذا جانبًا، فقد آن لي أن أعود إلى روما بعد أن توفى والدي فجأة وعلى غير انتظار. وقد عولت أن آخذ معي سوفرونيا،

ولذلك رأيت من اللائق والواجب ان أصارحكم بما كان يُمكن أن يظل سرًا في الكتمان. فإذا كنتم عقلاء أحسنتم الظن بي، أنا الذي كان في وسعي أن أتركها بكل نذالة ووضاعة. ولكن حاشا لله أن يعتلج في صدر روماني مثل هذا الخاطر.

إن سوفرونيا ملك لي بمشيئة السماء، وقوانين الناس، وكرم صديقي، والحيلة البريئة التي ألهمني الحب إياها، بينما أنتم —يا من تحسبون أنفسكم أحكم وأعقل من سائر الناس، بل من الآلهة نفسها— تجادلون في تلك المشيئة القدسية بوسيلتين، كلتاهما خطر عليّ: أولاهما– حجز سوفرونيا التي لا تملكون عليها سلطانًا أكثر مما أرضى بمنحه لكم، وثانيتهما– معاملتكم السيئة لصديقي الذي تدينون له بالشكر.

ولا أقول الآن: ما أقل تبصركم في الحالين، ولكني أنصحكم نصيحة ودية؛ هي أن تتخلوا عن تبرمكم وسخطكم، وأن تسلموني سوفرونيا لأرحل صديقًا لكم وأظل على ذلك.

وأؤكد لكم —سواء أرضيتم أم لم ترضوا بما فعلت— إنكم إذا آثرتم أن تلجأوا إلى وسيلة أخرى، فإنني سآخذ معي جيسيبو أيضًا، حتى إذا ما عدت إلى روما، لم تجدوا وسيلة لاستعادة من غدت من حقي برغمكم جميعًا. كذلك يجب أن تكونوا عقلاء، فتقدروا معنى التورط في إثارة سخط الرومانيين عليكم».

وبعد أن انتهى تيتو من حديثه، تناول ذراع جيبسيبو ومضى معه، وقد زوى ما بين حاجبيه، وأظهر كل دلائل الغضب والضيق لجميع من

كانوا في المعبد، بينما تأثروا هم بعض الشيء بالمبررات التي ساقها، كما ساورهم الخوف من كلماته الأخيرة المتوعدة، فآثروا أن يرضوا بمصاهرته لهم، بعد أن رفضها جيسيبو، على أن يفقدوا مصاهرة أحدهما ويكتسبوا عداوة الآخر.

ولذلك ما لبثوا أن أجمعوا رأيهم وأخبروه بأنهم موافقون على أن يأخذ معه سوفرونيا، وأنهم يعتبرونه صهرًا لهم، ويعتبرون جيسيبو صديقًا، ثم انصرفوا بعد ذلك الاتفاق الخطير فسلموه سوفرونيا. وكانت هي قد امتثلت للأمر الواقع، ونقلت إلى تيتو كل الحب الذي كانت تكنه لجيسيبو، ثم سافرت معه إلى روما حيث استقبلت بمظاهر الإجلال والتعظيم.

وظل جيسيبو في أثينا، لا يوليه الناس غير قليل من التقدير والاحترام، وتألفت أحزاب قوية ما زالت تعمل ضده حتى تمكنت من إقصائه عن المدينة، ثم حكمت عليه وعلى أسرته بالنفي الأبدي.

فلما أصبح –هكذا– بلا صديق، ولا يعدو أن يكون متسولًا عاديًا، رحل إلى روما ليرى هل سيحتفل تيتو بأمره ويرد له جميله. حتى إذا وجده حيًا يُرزق، وصاحب حظوة عند الرومان، تحرى عن منزله، ثم ذهب إليه، وأخذ ينتظر في الخارج حتى يمر به صديقه القديم.

ولكن تيتو مر به دون أن يعرفه، بسبب فقره البادي؛ فظن جيسيبو أنه قد رآه، ولكنه استخف به. وتذكر ما فعله لأجله من قبل، فابتعد عن منزله يبلبل خاطره الحزن والقنوط.

وهبط الليل إذ ذاك، ولم يكن جيسيبو قد تناول أي طعام خلال النهار، نظرًا لخلو جيبه، فشعر برغبة ملحة في الموت، ومضى يهيم على وجهه في الطرقات، حتى بلغ ناحية موحشة من المدينة، عثر فيها على خان تسلل إليه وقد اعتزم أن يقضي فيه ليلته.

وهناك، استلقى وهو شبه عار على الأرض الصلبة القاسية، وأنشأ يبكي حتى غلبه النوم. وفي تلك الليلة، وفد على الخان لصان ظلا يمارسان حرفتهما حتى مطلع الفجر، ثم قدما إلى ذلك المكان ليقتسما أسلابهما.

وسرعان ما دب الخلاف بينهما، فقتل أقواهما زميله وانصرف من فوره، وشاهد جيسيبو الجريمة وهي تُرتكب أمامه، فاعتقد أنه قد وجد السبيل إلى الموت الذي ينشده دون أن يقتل نفسه بيده. ومن ثم بقي في المكان حتى جاء الضباط بمجرد إبلاغهم أمر تلك الجريمة، فساقوه أمامهم على الفور.

وعندما استجوبوه، اعترف بأنه ارتكب تلك الجريمة، ثم خانته قواه فلم يقو على مبارحة مكانه بعد ذلك. وكان أن حكم عليه القاضي "ماركو فارو" بأن يُصلب؛ إذ كان الصلب هو عقوبة الإعدام في ذلك الحين.

واتفق أن قدم تيتو مصادفة إلى ساحة القضاء في ذلك الوقت، فتأمل مليًا وجه السجين، واستمع إلى حيثيات اتهامه، فعرف فيه على التو جيسيبو.

وعجب كل العجب لتنكر الحظ له، وقدومه إلى تلك المدينة؛ فعول على أن ينقذه بأي ثمن. ولما لم يجد سبيلًا إلى ذلك، استقر رأيه على أن

يتهم نفسه بارتكاب الجريمة، ومن ثم خطا إلى الأمام في عزم وإصرار، ثم صاح يخاطب القاضي بصوت جهير: أرجو أن تراجع حكمك يا ماركوفارو؛ لأن الشخص الذي أدنته بريء ، ذلك لأنني أنا الذي أغضبت الآلهة بقتل ذلك الرجل الذي وجده الضباط مذبوحًا في هذا الصباح بالخان، فلا تعمل على إغضابها بقتل شخص آخر بريء.

واستبدت الدهشة بالقاضي، وأحزنه أن سمع الحاضرون جميعًا ذلك التصريح الخطير. ولما لم يستطع –نظرًا لمركزه– أن يتغاضى, أو أن يغير في مجرى القوانين، فقد أمر جيسيبو بالتراجع قليلًا، ثم قال لتيتو:

كيف تبلغ بك الحماقة أن تعترف دون أن يعذبك أحد بجريمة أنت منها بريء، فتعرض حياتك للخطر؟ أنت تدّعي أنك الشخص الذي ذبح الرجل، وها هو شخص أخر يقر ويعترف بأنه الفاعل.

ورفع جيسيبو عينيه ليرى تيتو، ويدرك أنه قد أقدم في تلك التضحية ليرد له صنيعه وما لقيه منه من أفضال.. ولكن قال وهو ينخرط في البكاء: «الواقع يا سيدي أنني قتلته وإن اهتمام تيتو بسلامتي جاء بعد الأوان».

فصاح تيتو قائلًا: «لاحظ يا ماركو فارو أن هذا الرجل غريب عن هنا، وأنه عثر عليه بجانب القتيل وهو أعزل عن كل سلاح، وفي وسعك أن تدرك أن الفقر هو الذي أغراه بطلب الموت.. فاطلق سراحه، وعاقبني أنا لأنني أستحق هذا العقاب.

وتملكت الدهشة "فارو" إزاء إصرار كل منهما على اتهام نفسه،

وحدثته نفسه –رغم ذلك– بأن الاثنين بريئان. وفيما كان يُفكر في وسيلة لانقاذهما معًا، تقدم شاب يُدعى بابليو –وهو شرير سئ السمعة، اشتهر بأنه لص، بل إنه نفس الرجل الذي ارتكب تلك الجريمة– فلما رأى كل منهما يتهم نفسه، دفعته "النخوة" إلى أن يتقدم للقاضي قائلًا: «لقد ساقتني الأقدار إلى هنا لأحل هذه المشكلة.. ساقتني الآلهة، أو قوة خفية في أعماقي، لتحثني على أن أعترف بجريمتي.

فاعلم يا سيدي أن المجرم ليس واحدًا من هذان الشخصين اللذين يتهمان نفسيهما، لأنني أنا الذي قتلت الرجل في ساعة مبكرة من صباح اليوم.

وبينما كان ذلك المسكين نائمًا في الخان، كنت أنا والقتيل نقتسم الغنيمة, أما تيتو، فلا دليل يؤيد ما قاله عن نفسه، خاصة وإن أخلاقه لا غبار عليها, ومن ثم فقد وجب أن تُطلق سراحهما، وسأنفذ أنا ما يقضي به القانون.

وسرعان ما أُبلغ الأمر للإمبراطور "أوكتافيوس قيصر"؛ فطلب في معرفة ما دفع الثلاثة إلى اتهام أنفسهم هكذا. وجيء إلى حضرته ليقص عليه كل منهم حقيقة أمره بالتفصيل، على أن أطلق سراح الصديقين لأنهما بريئان، كما عفا عن الاثنين إكرامًا لهما.

وعندئذ، أخذ تيتو صديقه جيسيبو إلى منزله، بعد أن أنحى باللائمة عليه لانعدام ثقته فيه، وعدم الإيمان بصداقته.

واستقبلته سوفرونيا بأقصى مظاهر الحب والود، ثم راحت تطيب

خاطره لما كابده في الأيام الماضية. وسرعان ما قدم له تيتو شيئًا ملابسه، ثم اقتسم معه كل ما يمتلك، ومنحه أخته (فولفيا) لتكون زوجته، ثم قال له:

لك الخيار يا جيسيبو في أن تمكث عندي أو تعود إلى أثينا بكل ما أعطيتك.

كان جيسيبو متأثرًا بنفيه من ناحية، وبحبه وصداقته من ناحية أخرى، فوافق على أن يبقى في روما، حيث كانوا جميعًا في منزل واحد: هو مع فولفيا، وتيتو مع سوفرونيا.. في سعادة متبادلة يمتد ظلها الوافر مع الأيام.

صلاح الدين.. والفارس الإيطالي

قال "بامفيلو" يمهد لقصته، حين جاء قصته، عقب "فيلومينا" مباشرة:

«من المؤكد كل التأكيد –يا سيداتي– أن فيلو مينا على حق فيما قالته عن الصداقة، وإن لها حقًا أن تشكو، آخر الأمر، من أن تكون الصداقة ضئيلة القيمة بهذا القدر لدى الجنس البشري ، ولو أننا كنا مجتمعين هنا لنصحح أو نعدل ذنوب العصر، لقلت الكثير في سبيل هذا الغرض.

أما وهذا بعيد عن غايتنا، فإنني اعتزم أن أروي – في قصة طويلة، ولكنها مسلية – نبأ تصرف من التصرفات العديدة، المجيدة، التي صدرت عن "صلاح الدين الأيوبي"، ومنا نرى أنه إذا كنا –لعجزنا ونقصنا– لا نملك أن نحظى بصداقة أي أمرئ، فخليق بنا أن نجد سرورًا في الجنوح إلى الأمل في أن يكون للصداقة جزاء في يوم ما»:

صدر في عهد الإمبراطور "فردريك" الأول، قرار بشن حرب صليبية عامة بقيادة جميع الأمراء المسيحيين، لاسترداد الأراضي المقدسة. وترامى هذا العزم –أول ما ترامى– إلى أذني "صلاح الدين"، وكان عاهلًا فاضلًا، تقيًا، يتبوأ إذ ذاك سلطنة (بابل)، فقرر أن يتولى بنفسه الإشراف على الاستعدادات التي تتخذ لتهيئة أكمل دفاع عن الأراضي المقدسة.

ومن ثم ركز كل شئونه في مصر، واصطحب اثنين من أعقل نبلاء

حاشيته وأرفعهم مقامًا، وثلاثة من الخدم فقط، ثم رحلوا جميعًا في ثياب التجار وكأنهم ذاهبون إلى الحج. وبعد أن اجتازوا كثيرًا من الدول المسيحية، واجتازوا –على ظهور جيادهم– سهل (لومباردي) ليعبروا الجبال، انتهوا في المساء إلى مكان بين (ميلان) و(بافيا)، حيث التقوا بسيد من (ايستريا) يُدعى "توريللو"، في طريقه للصيد والقنص، ساعيًا مع صقوره وكلابه وخدمه، إلى بيت ريفي كان يمتلكه عند نهر (تسينو).

وما إن رآهم "توريللو"، حتى أيقن أنهم أغراب، من أصل طيب، فتولته الرغبة في أن يبدي لهم كرمه.

لذلك لم يكد "صلاح الدين" يسأل واحدًا من خدم "توريللو" عن المسافة الباقية إلى مدينة (بافيا)، وعما إذا كان بوسعهم أن يبلغوا المدينة قبل أن تغلق أبوابها، حتى أجاب بنفسه:

«من المستحيل أن تبلغوا المدينة أيها السادة، قبل أن تغلق أبوابها», فقال صلاح الدين: «إذن، أرجو أن تخبرنا عن خير مكان نستطيع أن نجد فيه مأوى وقوتًا، لأننا أغراب».

فأجاب توريللو: «سأفعل هذا من كل قلبي.. لقد كنت موشكًا أن أوفد رجلًا من أتباعي إلى مكان بالقرب من (بافيا)، في مهمة خاصة.. ولسوف يرافقكم، ويقودكم إلى مكان تستطيعون أن تجدوا فيه الراحة الكافية».

ومن ثم انتحى جانبًا بشخص من أكثر أتباعه استئثارًا بثقته، وبعد أن

أنبأه بما ينبغي أن يفعله, أوفده مع الأغراب، بينما اتجه بأسرع ما في وسعه عائدًا إلى داره من طريق أخرى. وهناك، أمر بإعداد عشاء شهيا بقدر ما كان الوقت يسمح، ثم مدت الموائد في الحديقة.. حتى إذا تم ذلك، ذهب "توريللو" بنفسه إلى الباب، لينتظر الأغراب.. إذ كان خادمه قد سلك بهم طريقًا متعرجة، وهو يثرثر معهم، حتى قادهم —في النهاية، ودون إن يفطنوا إلى غايته — إلى دار مولاه.

وما إن رآهم "توريللو" حتى تقدم إليهم في بشاشة، وقال: «أهلًا بكم وسهلًا يا سادة.. إني أرحب بكم من كل قلبي».

ولما كان "صلاح الدين" عظيم الذكاء، فقد أدرك لفوره أن الفارس خشى أن لا يقبلوا دعوته لو أنه كان قد دعاهم عندما التقى بهم لأول مرة، ومن ثم ابتكر هذه الحيلة حتى لا يحرم من متعة استضافتهم.

لذلك رد "صلاح الدين" تحية "توريللو"، وهو يقول: «إذ جاز لشخص أن يشكو من إكرام شخص آخر له، لكان لنا أن نلومك؛ إذ اضطررتنا —دون أن يكون بيننا أكثر من تحية عابرة— إلى أن نتقبل مثل هذه الحفاوة البالغة».

ولما كان توريللو حكيمًا ولبقًا، فقد أجاب: «إن ما تلقونه مني يا سادة ليس سوى احترام متواضع، إذا قورن بما ينبغي لكم، على هدى ما ألمسه من ملامحكم.

والواقع أن ليس في (بافيا) مكان ملائم تستطيعون أن تنزلوا فيه، ومن ثم فأرجو أن لا يضايقكم أن تنحرفوا عن طريقكم قليلًا، لكي تنزلوا منزلًا

أقل إزعاجًا لكم».

وإذ قال ذلك، تقدم الخدم فأمسكوا بأعنة الجياد، بينما هبط "صلاح الدين" وزميلاه عن متونها، ثم اقتيد السادة الثلاثة إلى غرف أعدت لهم، حيث نزعت عنهم أحذيتهم، واغتسلوا، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، حتى حان موعد العشاء.

وكان "صلاح الدين" وزميلاه يجيدون اللغة اللاتينية كل الإجادة، ومن ثم كان التفاهم سهلًا، وبدا "توريللو" في نظرهم أمجد، وأكمل، وأبلغ رجل التقوا به في حياتهم.

كذلك أدرك "توريللو" —من ناحيته— أنهم من ذوي المكانة الرفيعة، والمحتد النبيل، وأنهم فوق كل ما حدسه عندما رآهم، ومن ثم ساءه أن لا يستطيع أن يكرمهم الإكرام الذي يليق بمراكزهم.

على أنه عول على أن يعوضهم عن ذلك في اليوم التالي. وبعد أن أدلى إلى خدمه بما ينبغي أن يفعلوه، أوفد أحدهم إلى (بافيا) التي كانت جد قريبة —ولم تكن لها أبواب تُغلق— حيث كانت تقيم زوجته، وهي سيدة رفيعة المقام، عظيمة الإدراك.

ثم صحب ضيوفه —بعد ذلك— إلى الحديقة، حيث سألهم في لباقة عمن يكونون، فأجاب صلاح الدين: «إننا تجار من قبرص، نسعى إلى باريس في بعض شئوننا».

فقال توريللو: «لكم أتمنى لو أن بلادنا أنجبت سادة على شاكلة تجار قبرص». وهكذا راحوا يتنقلون من موضوع إلى آخر، على غير ما كانوا

يتوقعون.

وبعد فترة قصيرة من رفع الموائد، حدس "توريللو" أن ضيوفه متعبون، فأمر باقتيادهم إلى غرفهم، حيث كانت السرائر الفخمة، الوثيرة، مُعدة لهم، ثم لجأ بدوره إلى مخدعه.

أما الخادم الذي أوفد إلى (بافيا)، فقد حمل الرسالة إلى السيدة زوجة سيده —التي بادرت بمسلك لم ينم عن أنوثة فحسب، وإنما نم أيضًا عن جلال ملكي صادق— فجمعت عددًا كبيرًا من أصدقاء "توريللو" وخدمه، ودبرت كل ما يلزم لوليمة عظيمة، حافلة، وأوفدت الرسل —على أضواء المشاعل— في أرجاء المدينة لدعوة معظم النبلاء، والأغنياء، ثم فرشت جميع الغرف بأبسطة من القصب، وعلقت ستائر بديعة، ومخمليات تنفيذًا لتعليمات زوجها.

وفي الصباح الباكر، نهض السادة من نومهم، فامتطوا جيادهم مع "توريللو"، الذي أمر بنقل صقوره إلى بحيرة مجاورة، حيث قضوا بعض الوقت في القنص.

على أن "صلاح الدين" لم يلبث أن سأل أحد الأشخاص أن يرشده إلى خير فندق في (بافيا)، فقال توريللو: «سأقوم أنا بهذا، فإن لدي مهمة هناك».

وهكذا ركب "صلاح الدين" وزملاؤه معه، فوصلوا إلى (بافيا) في نحو الساعة التاسعة من الصباح.

وبينما كان الأغراب يظنون أن "توريللو" يقودهم إلى خير فندق، إذا

به يستدرجهم إلى قصره، حيث كان ثمة خمسون من أعيان المدينة متأهبين لاستقبالهم.

وما إن لمح "صلاح الدين" وزميلاه ذلك، حتى حدسوا ما جرى، فقالوا: «ما كنا نرغب في هذا يا سيدي، لقد أكرمتنا ليلة أمس بما فيه الكفاية، وبما يفوق ما كنا نرجو، ومن ثم فخليق بك الآن أن تدعنا نواصل رحلتنا».

فأجابهم قائلًا: «لقد كنت ليلة أمس مدينًا للحظ أيها السادة؛ إذ ساقكم إلى طريقي، في ظروف لم يكن لكم فيها مفر من أن تنزلوا بداري الريفية المتواضعة.

أما الآن، فسوف أكون مدينًا لكم –ويشاطرني كل هؤلاء النبلاء المحيطين بكم– إذا أبى كريم خلقكم أن ترفضوا تشريفي بتناول الغداء على مائدتي».

وهكذا تغلب على معارضتهم، فترجلوا عن جيادهم، حيث استقبلهم الجمع بحفاوة، وغبطة، واحترام، واقتيدوا إلى عدد من الحجرات فرشت بأفخم الرياش، ليستريحوا فيها.

وما إن خلعوا ثياب الركوب، وتناولوا بعض المرطبات، حتى طلعوا على القوم في قاعة كبيرة. وبعد أن غسل الجميع أيديهم، جلسوا في انتظام، ثم مدت مائدة ما كان الإمبراطور ليحظى بأفضل منها، لو إنه كان موجودًا.. بل إن "صلاح الدين" وزميليه، لم يتمالكوا أن دهشوا لها، وهم الذين اعتادوا على كل ألوان الرفاهية والكرم. وزادهم دهشة أن تبينوا

مقام مضيفهم الذي حسبوه –في البداية– مجرد سيد من علية القوم.

وعندما رفعت المائدة، وتجاذب القوم أطراف الحديث بعض الوقت، استأذن وجهاء (بافيا) في الانسحاب؛ إذ اشتدت حرارة الجو, وخلا "توريللو" إلى ضيوفه الثلاثة، فدعاهم إلى قاعة للجلوس، وهناك أبى أن يظل شيء مما يعتز به خافيًا عنهم، فبعث يستدعي زوجته.

وسرعان ما أقبلت عليهم بجمالها الفذ، وقامتها المديدة، ومظهرها المهيب، يحف بها ابناها الصغيران، وقد لاحا كما لو كانا من الملائكة.

وحيت السيدة الضيوف في عظمة وجلال؛ فبادروا إلى النهوض، واستقبلوها في تجلة واحترام، ثم أجلسوها، وأولوا الطفلين رعاية بالغة.

ودار الحديث بينهم بعض الوقت، ثم غادر "توريللو" الحجرة؛ فشرعت السيدة تسألهم في تواضع ولطف عن البلد الذي قدموا منه، والمكان الذي كانوا يقصدون إليه، فأجابوها بعين ما أجابوا به "توريللو" من قبل. فقالت في بشاشة:

"إذن، فلعل خطتي المتواضعة تلقى لديكم قبولا يا سادة.. فأرجو أن تسدوني صنيعًا بأن لا تستخفوا بالهدية الصغيرة التي أريد أن أقدمها لكم، وأن تراعوا أن النساء لا يقدمن سوى هدايا صغيرة تتناسب وإمكانياتهن البسيطة.. ومن ثم آمل أن تتقبلوها تقديرًا لحسن نية مهديتها، دون مراعاة لقيمتها».

وأمرت باحضار ثوبين لكل منهم –أحدهما مبطن بالحرير، والآخر مبطن بالفراء– أكثر ملاءمة لكبار السادة منهما للمواطنين العاديين أو

التجار، وكذلك ثلاث عباءات لثلاثتهم، وقالت: «ألا تقبلوا هذه الأشياء يا سادة، فإني أكسوكم كما أكسو زوجي، آملة —وأنتم جد بعيدين عن أن تحظوا بخدمات زوجاتكم، ولا تزال أمامكم رحلة طويلة— أن تفيدوا من هذه الهدية رغم ضآلة قيمتها، لا سيما وإنكم، معشر التجار، تحبون ارتداء النظيف الأنيق من الثياب».

واستولى الذهول على الضيوف حين رأوا أن السيد "توريللو" لم يدع مظهرًا لإكرامهم إلا واتخذه. وداخلهم الريب —في الوقت ذاته— في أن تكون حقيقتهم قد وضحت.

وما لبث أحدهم أن قال في النهاية: «إن هذه لهدية عظيمة يا سيدتي، بل إنها لمن الفخامة لدرجة ما كان لنا معها أن نتقبلها، لولا أنك تخلعينها علينا، فلسنا نملك سوى الإذعان».

وكان زوجها قد عاد في تلك الأثناء، فاستأذنت وانصرفت لتخلع على خدمهم خلعًا مناسبة. وألح "توريللو" على السادة أن يمكثوا طوال ذلك اليوم، فقبلوا دعوته. وبعد أن استراحوا قليلًا ، ارتدوا الثياب الجديدة، ورافقوا مضيفهم في جولة على ظهور الجياد حول المدينة، حتى إذا عادوا، وجدوا في انتظارهم استقبالاً عظيمًا، وجلسوا الى العشاء مع علية القوم. فلما حان موعد النوم، أووا إلى مخدعهم، حتى إذا أقر الصباح، وجدوا —بدلا من جيادهم المضناة— ثلاثة جياد قوية، أصيلة، مع جياد جديدة لخدمتهم. فما إن رأى صلاح الدين ذلك، حتى تحول الى زميليه قائلا: «أقسم إنني لم أصادف مثل هذه الحفاوة الكاملة، ولا مثل هذا

السيد الواسم الأفق.. ولو أن ملوك المسيحيين كانوا على هذه الشاكلة، لما قدر لسلطان (بابل) أن يقف ضد واحد من أولئك الذين يتأهبون الآن لغزو بلاده».

وإذ أدرك أن لا جدوى من محاولة رفض هذه الهدايا، أو تقديم ما يقابلها قدم من الشكر ما كان واجبًا، ثم امتطى وأتباعه جيادهم، فرافقهم «توريللو» وعدد كبير من أصدقائه الى مسافة كبيرة خارج المدينة. ومع أن «صلاح الدين» حزن للفراق، إلا إنه كان مضطرا للرحيل، فرجا «توريللو» أن يرتد عائدا. وأجاب هذا وهو كاره للفراق: «سأعود يا سادة، مادامت هذه رغبتكم. على أنني أريد أن أقول لكم هذا: إنني لا أعرف من تكونون، ولا أنشد معرفة شيء فوق ما رغبتم في أن أعرف، ولكن.. كيفما كنتم، فلن يقدر لكم أن تقنعوني بأنكم تجار.. والآن، أستودعكم الله».

وهنا ودّع «صلاح الدين» الجمع كله، ثم التفت الى «توريللو» قائلا: «قد تتاح لنا فرصة نريك فيها بعض تجارتنا يا سيدي لتطمئن إلى حقيقتنا.. على أننا الآن، نستودعك الله».

وهكذا رحل «صلاح الدين»، وقد عقد العزم على أن يبدي للسيد «توريللو» إكرامًا لا يقل عما لقي منه، إذا قدر له أن يعيش، وإذا لم تحل المقبلة دون ذلك، وراح يتحدث مع زميليه عنه، وعن زوجته، وعن كل ما قال أو فعل، مطريًا الجميع، مشيدًا بذكرهم. وبعد أن طاف بالغرب في رحلة لم تكبده قليلا من الجهد والعناء، استقل سفينة إلى (الاسكندرية)،

مزودًا بكل صغيرة وكبيرة، متأهبًا لدفاع قوي، منيع.

***

عاد السيد «توريللو» إلى (بافيا) تتنازعه الاستنتاجات عمن يكون هؤلاء الثلاثة. على أنه كان – فيها جميعًا– أبعد ما يكون عن الحقيقة. وكان الوقت الذي تقرر أن ترحل فيه القوات المسيحية يقترب، وقد قامت الاستعدادات على قدم وساق في كل مكان ، وقرر «توريللو» أن يذهب مع الذاهبين رغم دموع زوجته وتوسلاتها. ومن ثم أعد عدته، وفيما كان يقوم بامتطاء جواده، قال لزوجته التي كان يحبها بكل جوارحه: إنك لترين يا عزيزتي أنني إنما أذهب مع هذه الحملة لأنشد مجد الدنيا، وطمأنينة الروح في الآخرة. وإني لأسلمك شرفي ومالي وديعة.. وإذا كان رحيلي مؤكدًا، فإن عودتي غير أكيدة نظرًا لآلاف الحوادث ، لذلك لا أسألك إلا فضلاً واحدًا: ليجر لي ما يجري، فاذا لم يصلك نبأ مؤكد عن وجودي على قيد الحياة، فليس لك أن تمكثي دون زواج سوي عام واحد، وشهر واحد، ويوم واحد، بعد يوم رحيلي هذا».. فأجابت السيدة وقلبها يتفطر من شدة البكاء: «لست أدري، يا زوجي العزيز، كيف سأقوى على احتمال الأسى الذي تركتني فيه، ولكنني لو عشت، وجرى لك أي ضر، فلك أن تتركني فيه، ولكنني لو عشت، وجرى لك أي ضر، فلك ان تعيش وأن تموت وأنت واثق من أنني سأعيش وأموت زوجة توريللو، وفيه له ولذكراه»... فقال: «لست أرتاب أنك ستنفذين ما تعدين به بقدر ما في وسعك. ولكنك شابة، جميلة، وطيبة الأصل، وقد أوتيت من الفضائل ما عرفه الجميع، ومن ثم فلا يساورني أقل شك في أنه إذا ما تناولت الشكوك

مسألة حياتي وموتى، فإن كثيرًا من كبار السادة والنبلاء سيقبلون ويطلبون يدك من إخوتك وأهلك، ولن تقوي على صد توسلات هؤلاء وضراعاتهم الملحة، مهما يكن إصرارك، ومن ثم فستنتهين إلى الرضوخ. ومن أجل هذا السبب أردت أن أقيدك بهذا الوعد، ولن أسألك لحظة واحدة أكثر من تلك الفترة».. فقالت السيدة: «سأبذل كل ما في طوقي لأنفذ وعدي، ولكنك خليق بأن تطمئن إلى أنني –إذا قدر لي أن أتعرض لضغط– سأصدع بما تريد، وإن كنت أدعو الله أن لا تتطور الأمور إلى مثل هذا الموقف، سواء لك أو لي».. ثم عانقته، ساكبة من الدمع فيضًا مسترسلاً، وانتزعت من حول أصباعها خاتما أعطته اياه، قائلة: «إذا قدر لي أن أموت قبل عودتك، فتذكرني كلما رأيت هذا الخاتم».

وتقبل الخاتم، ثم ودع كل امرئ، وامتطي جواده. وانطلق مع حاشية فخمة إلى (جنوا) حيث استقلوا جميعا سفينة، حتى إذا بلغوا (عكا) انضموا الى الجيش المسيحي الذي كان قد تفشى فيه إذ ذاك وباء فتك بعدد كبير من الأفراد، فما لبث الفئة القليلة التي تبقت أن وقعت في أسر «صلاح الدين»، وشتت أفرادها في سجون المدن المختلفة. وكان «توريللو» بين هؤلاء، وقد طوح به الحظ إلى (الإسكندرية)، حيث دفعته الضرورة إلى أن يعنى بالصقور التي كان جد خبير بها، مما لفت إليه نظر «صلاح الدين»، فاتخذه أمينًا على صقوره.. ولم يتذكر «توريللو» –الذي لم يعرف هناك بأي اسم سوى «المسيحي»– السلطان، ولا السلطان تذكره. ولم يكن يفكر في غير (بافيا) وكثيرًا ما حاول الهرب، ولكنه لم يوفق. على أن عددًا من الرسل أقبلوا من (جنوا) يفاوضون السلطان بصدد

افتداء بعض مواطنيهم. وفيما كانوا يهمون بالرحيل، قرر «توريللو» أن يكتب لزوجته ليعلمها بأنه على قيد الحياة، وأنه سيعود الى الوطن بأسرع ما يستطيع، راجيًا إياها أن تترقب مقدمه بين يوم وآخر. بل إنه التمس من أحد الرسل أن يحمل رسالة أخري إلى مطران كنيسة «سان بييترو» في (سيبيل دورو)، الذي كان عمًا له.

***

وفيما كان «توريللو» في أسره، قدر له يومًا، وهو يحدث «صلاح الدين» عن صقوره أن يضحك، محدثًا حركة بشفتيه كانت قد استرعت انتباه «صلاح الدين» حين كان في داره ببافيا، فتذكره السلطان في الحال، وأمعن النظر فيه، فتأكد من أنه عين الشخص الذي أكرمه، ومن ثم تحول عن موضوع الحديث قائلا: «نبئني أيها المسيحي، من أي بلاد الغرب أنت؟».. فأجاب: «إنني يا مولاي لمباردي، ولدت في مدينة تدعى (بافيا)، ولكنني رجل فقير لا مكانة له».. فازداد صلاح الدين تأكدًا مما ساوره، وقال لنفسه في ابتهاج: «ولقد أتاح لي القدر الفرصة كي أريه جزاء إكرامه لي». ومن ثم أمر بفتح صوان ملابسه، وقاد «توريللو» إليه وسأله: "تأمل أيها المسيحي، ما إذا كان بين هذه الثياب ثوب رأيته من قبل".

وسرعان ما وقع بصر «توريللو» على الثوبين اللذين أهدتهما زوجته لصلاح الدين، ولكنه لم يتصور أن يكونا هما بالذات، فقال: «لست أتعرف يا مولاي على واحد منها، وإن كان بينها اثنان يشبهان بالفعل ما كنت أرتدي فيما مضى، وما سبق أن أهديت لثلاثة تجار زاروني في

داري».

ولم يعد «صلاح الدين» يقوى على تمالك نفسه، فاحتواه بين ذراعيه في ابتهاج، وقال: «أنت السيد توريللو، من ايستريا، وأنا أحد التجار الثلاثة الذين أهدتهم زوجتك هذه الثياب، وقد آن الآوان لكي أبر بما وعدتك حين فارقتك من أن أريك تجارتى».

وعندما سمع «توريللو» ذلك تناوبه الفرح والخجل، لأنه لم ير أن إكرامه لصلاح الدين كان لائقًا بمقامه. ولكن صلاح الدين قال: «أما وقد ساقك القدر إلى هنا يا توريللو، فاعتبر نفسك السيد هنا، ولست أنا». وهكذا عمد -بعد التعبير عن عظيم اغتباطه- الى أن خلع عليه ثيابًا ملكية، ثم قدمه الى كبار رجال دولته، وأطنب في إطراء مناقه، وسألهم أن يبدوا له من الاحترام والتبجيل عين ما يبدونه له هو، إذا شاءوا أن يرضى عنهم، ولم يتوانوا في تلبية ذلك، لاسيما السيدان اللذان كانا يرافقان «صلاح الدين» في رحلته.

وأبعدت مظاهر العظمة والتكريم -عن ذهن «توريللو»- همومه بعض الوقت، لاسيما وأنه كان يرجو ان تكون رسالتاه قد وصلتا إلى عمه وإلى زوجته. وتصادف أن كان في معسكر المسيحيين سيد صغير الشأن، فقد حياته غيلة، وكان اسمه «توريللو» مثل صاحبنا، ولكنه كان من مدينة (دنبيس). ولما كان «توريللو ديستريا» معروفًا للجيش كله لما أبداه من نبل وبسالة، فقد اتجهت الأفكار إلى أنه هو الذي مات، لذلك عاد معظم الإيطاليين إلى بلادهم حاملين النبأ، وذهب بعضهم إلى التأكيد بأنهم رأوه

وهو يجود بآخر أنفاسه، وإنهم شهدوا دفنه، فسبب هذا حزنًا لزوجته, وأقاربه, ومعارفه، يجل عن كل وصف. وما أن خفت لوعة السيدة بعض الشيء، حتى بدأ اخوتها وأهلها يضغطون عليها لتتزوج ثانية، ورفضت السيدة عروضهم مرارًا وهي تبكي، ولكنها لم تر مفرًا في النهاية من الرضوخ، على أن لا تقام حفلات رسمية، وعلى أن لا يتم الزفاف إلا بعد أن تنقضي الفترة التي وعدت بها «توريللو».

وهكذا جرت الأمور في (بافيا)، حتى لم يبق على نهاية المدة سوى ثمانية أيام. وحدث ذات يوم ان التقي «توريللو» برجل كان في رفقة رسل «جنوا» –الذين ائتمنهم على رسالتيه– فعلم منه أن السفينة غرقت بعد أن بارحها في (كريت).. وما إن استوثق «توريللو» من هذا، حتى تذكر أن نهاية المهلة التي ضربها لزوجته قد اقتربت، وأن زوجته ولابد قد قبلت الزواج ثانية؛ اذ لم تبلغها أنباء منه، فنخر الأسى قلبه، وعاف القوت، حتى أشرف على الهلاك. وما إن افتقده «صلاح الدين»، حتى زاره. وما إن عرف منه بالقصة –بعد جهد– حتى لامه على أنه لم يبادر إلى مصارحته بها، وسأله أن يسري عن نفسه، وأعدا إياه بأن يكون في (بافيا) قبل انقضاء اليوم الأخير.

***

واطمأن «توريللو» إلى كلمات «صلاح الدين»، لاسيما بعدما شرح له خطته. وبالفعل، بادر «صلاح الدين» إلى استشارة من رأي استشارتهم لابتكار طريقة لنقل «توريللو» –على سرير– إلى (بافيا)، في يوم وليلة..

وما إن اطمأن إلى هذا الأمر، حتى رجع الى «توريللو»، فوجده قد عاد الى هواجسه، وإذ ذاك قال له: «إذا كنت تحب زوجتك يا توريللو إلى هذا الحد، وقد أكربك ما تخشاه من أن تكون قد ارتضت سواك، فلست ألومك، فقد أوتيت من الخلق والمسلك –فضلا عن الجمال الذي لا تدوم نضرته لأنه شيء فان– ما لم أره لدى أية سيدة أخري. ولقد كان يسعدني حقًا –بعد أن ساقك القدر إلى هنا– أن نعيش معًا، وأن تعاونني في حكم هذه البلاد.. ولكن لا أحسب أني سأظفر بهذا، ما دمت مصرًا على بلوغ (بافيا) قبل فوات الأوان. ولقد وددت لو أنك صارحتني بهذا مبكرًا، لأبعث بك إلى (بافيا) في ركب وحاشية يليقان بمقامك عندي. أما وأنت في عجلة للوصول في أوجز فترة ممكنة، فسوف أعني بأن ترحل وفقًا للخطة التي أفضيت إليك بها».. فرد عليه توريللو قائلا: «إن البوادر، دون الكلمات، قد بينت بجلاء يا مولاي جليل شعورك نحوي، وهو شرف رفيع يفوق ما استحق. وثق أنني سأظل معتزًا بما قلت لي، سواء عشت أو مت».

وأمر «صلاح الدين» أحد أبناء الجان –الذين كانوا طوع بنانه– فأعد سريرًا من أفخم الأسرة، فرش بالمخمل والقصب، ووشيت حوافه بأحجار كريمة غالية. ثم أمر بأن يرتدي «توريللو» أجمل الثياب الشركسية وأقمنها، وذهب ومعه جمع من كبار رجال بلاطه إلى «توريللو»، فجلس الى جوادة، وشرع يبكي ويقول: «لقد حانت الساعة التي تفرق بيننا يا توريللو، ولما كنت لا أقوى على توديعك، ولا أرضى بأن يودعك سواي؛ لذلك رأيت ان أودعك في مخدعك هذا، فأسلمك إلى رعاية الله،

وأستحلفك بما بيننا من حب وصداقة أن تذكرني دائمًا، وأن تسوي أمورك في (لمباردي) إذا استطعت هذا —قبل نهاية أجلينا— وأن تعود مرة أخرى إلى زيارتي، وإلى إتاحة الفرص لي كي أعوض ما حرمني منه رحيلك من متعة رفقتك.

وإلى أن يحين ذلك، دع الخطابات تنوب عنك في زيارتي، واطلب ما يروق لك من مطالب، فليس في الدنيا من يسعدني أن أرضيه». ولم يتمالك "توريللو" نفسه من البكاء، وأوضح في إيجاز أن من المستحيل أن ينسى ما غمره به "صلاح الدين" من أفضال، وأنه لن يتوانى —إذا شاءت الأقدار— في أن يلبي رغباته، وعانقه "صلاح الدين" في رفق، قائلًا: «الله معك», ثم غادر الحجرة وهو يبكي.

وحمل "توريللو" إلى السرير الذي كان موضوعًا في القاعة الكبيرة، ثم أقبل طبيب بدواء قال إنه مقوٍ، فما أن تناوله "توريللو"، حتى راح في سبات عميق، ثم أمر "صلاح الدين"، فوضع على السرير تاج من أفخم التيجان وأغلاها، وقد نقش عليه أنه هدية من "صلاح الدين" إلى قرينة "توريللو".

كما أحاط السلطان أحد أصابع الرجل بخاتم ذي حجر كريم يرسل بريقًا متوهجًا كأنه اللهب، ولا تقدر قيمته بمال.

ووضع إلى جواره سيفًا ثمينًا، رصع غمده بالنقوش والأحجار النادرة. كما أحاط عنقه بقلادة من اللآلئ لا سبيل إلى تقدير قيمتها، ثم وضع إلى جانبيه جرتين مليئتين بالجنيهات الذهبية، والقلائد، والأساور، والأقراط

اللؤلؤية.

ولما تم ذلك، قبل "توريللو" مرة أخرى، وأمر الجان بأن يحمل السرير بمن فيه، وينطلق إلى غايته بأسرع ما في وسعه.

وفي الحال، حمل الجان السرير، و"توريللو" نائم فيه، فلم ينزله إلا في كنيسة "سان بييترو" –في (سييل دورو) ببافيا– حيث عثر عليه خادم الكنيسة في الصباح التالي، فذعر، وهرع إلى مطران الكنيسة والرهبان الذين أقبلوا مضطربين، فرأوا السرير الفخم، العجيب، والفارس النائم فيه.

ووقفوا على مسافة منه، وأخذوا يحملقون فيه، وقد أمسكوا أنفاسهم لما رأوه من جواهر ولآلئ.

وفي تلك الأثناء، كان أثر المخدر قد زايل "توريللو"، فأفاق، وأرسل زفرة عميقة، وإذ ذاك صاح المطران والرهبان: «رحمالك يا إلهنا».. وفروا هاربين.

وهنا فتح "توريللو" عينيه وتلفت حوله، فأسعده أن وجد نفسه حيث وعده "صلاح الدين"، ونهض، فما أن رأى الكنوز التي أتحفه بها "صلاح الدين"، حتى ازداد إيمانًا بكرمه ونبله.

على أنه لمح الرهبان أثناء فرارهم، فأدرك السبب، ونادى المطران باسمه راجيًا منه أن لا يخاف، لأن الذي أمامه هو "توريللو" ابن أخيه، ولم يزد هذا القول المطران إلا جزعًا؛ إذ كان قد علم أن ابن أخيه مات منذ شهور.

على أنه لم يلبث –حين كرر "توريللو" النداء– أن عاد وهو يرسم الصليب على صدره، فقال له توريللو: «ما الذي يزعجكم يا أبت؟ إنني على قيد الحياة، ولله الحمد، وها قد عدت من الخارج».

فأقبل عليه المطران يصافحه قائلًا: «مرحبًا بك يا بني، ما ينبغي أن تدهش لخوفي؛ إذ ليس في المدينة أحد لم يصدق نبأ موتك، حتى إن زوجتك السيدة "اداليبرا" قد قبلت الزواج من سواك تحت توسلات أهلها وتهديدهم، وستنقل اليوم إلى بيت الزوج الجديد، وقد أعد كل شيء لزفافها إليه».

إذ ذاك نهض "توريللو"، فصافح المطران والرهبان، وسألهم أن لا يذكروا شيئًا عن عودته، إلى أن يفرغ من أداء مهمة معينة، ثم نقل الجواهر والأشياء الثمينة إلى مكان أمين، وروى للمطران ما جرى له.

ورغب بعد ذلك في أن يعرف كيف ستستقبل زوجته هذا الزواج الثاني، قبل أن تعرف بعودته، من ثم اصطحبه المطران معه إلى مأدبة الغداء التي أقيمت لهذه المناسبة.

واتجهت أنظار الحضور جميعًا إلى "توريللو"، وهو في ثيابه الشركسية، لاسيما حين قدم للجميع على أنه رسول من السلطان، موفد إلى ملك فرنسا، وتكريمًا له، أجلس إلى مائدة العروس، وفي مقعد يواجه مقعدها، ولاحظ ما كان أعلى أساريرها من معالم تنم عن عدم رضائها عن الزواج.

وكانت السيدة ترمقه بين آن وآخر، وهو مطمئن إلى أنها لم تعرفه؛ إذ كانت لحيته المرسلة تخفي ملامحه. وأخيرًا، رأى أن الفرصة قد سنحت

ليختبر مدى ما تحتفظ به من ذكرى له، فنادى شابًا من الخدم وقال له: «قل للعروس إن من عادات قومي إنه إذا حضر غريب مثل هذه المأدبة، أبدت العروس ترحيبها به، وذلك بأن ترسل إليه الكأس التي تشرب فيها مترعة بالخمر، فإذا شرب الضيف حظه منها، ردها إليها، فشربت هي ما تبقى فيها».

ورأت السيدة أن واجب الضيافة والمجاملة يفرض عليها إرضاء الغريب، الجليل القدر؛ فأمرت بكأس ذهبية كبيرة ملئت بالخمر، وأرسلت إليه.

ودس "توريللو" الخاتم –الذي كانت زوجته قد أهدته إليه عند رحيله– في فمه، ثم أفلته في الكأس وهو يشرب، ولم يترك سوى قدر ضئيل من الخمر في الكأس، ثم أرسل الكأس إلى العروس التي رفعت غطاءها، وهمت بأن ترفعها إلى شفتيها، فلمحت الخاتم.

وما إن تأملته مليًا، حتى تأكدت من أنه الخاتم الذي قدمته لزوجها، فتناولته، وعادت تتفرس في الغريب، ثم هبت واقفة، وصاحت كالمذهولة: «هذا زوجي ومولاي, إنه توريللو حقًا».

وهرعت إلى حيث كان يجلس، غير حافلة بأحد، ولا مكترثة لشيء، فطوقت عنقه، وضمته في شدة.

وبعد أن هدأت الضجة التي أثارتها عودة الفارس الجليل، سأل "توريللو" الجميع أن يسكتوا، ثم راح يروي لهم ما حدث له مذ غادر داره حتى ساعته تلك، راجيًا أن لا يكون السيد –الذي كان موشكًا أن يتزوج

من زوجته– قد استاء لوجوده على قيد الحياة، واسترداده زوجته.

ومع أن استياء الرجل لم يكن بالقليل، إلا إنه أبدى فرحة بعودة "توريللو" لا تقل عن فرحته وهو موشك على الزواج من السيدة.

وأقيمت أفراح هائلة لعودة "توريللو" الذي وزع الجواهر –التي حمله إياها صلاح الدين– على المطران والحضور، كما سدد بجزء منها النفقات التي كانت قد أنفقت على الاحتفال بزفاف زوجته إلى الزوج الثاني.

وما لبث "توريللو" أن أرسل إلى "صلاح الدين" يطمئنه إلى وصوله السعيد، وظل منذ ذلك الحين صديقًا مخلصًا له، وعاش سنين عديدة –بعد ذلك– مع أفضل الزوجات في الحياة، مستأنفًا ما كان من عادته من إكرام للضيف، واحتفاء بالغريب.

الفهرس